حوارات

مع عبد الكريم سروش

مجموعة مؤلفين

سلسلة
إصدارات
مـركــــز
الموعود
الثقــافــي
[الكويت]

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على محمّد وآل محمّد

اسم الكتاب: حوارات مع عبد الكريم سروش

المؤلف: مجموعة مؤلفين

عدد الصفحات: 231 ص.

الناشر: مجلة نصوص معاصرة

إعداد: مركز الموعود الثقافي – الكويت

(جزء من سلسلة إصدارات المركز المعدّة)

رقم الإصدار: 1

الطبعة: نسخة إلكترونية – 2013 م/1434هـ

شبكة الفكر
alfeker.net

مركز الموعود الثقافي

almaw3oud@Gmail.com

كلمة المركز

إنّ إيمان مركز الموعود الثقافي بالواجب المتحتّم عليه في نشر المعرفة والمساعدة على توفير أكبر قدر منها جعله بالإضافة إلى عمله في عمل الندوات ونشر الكتيبات والمحاضرات يعمل على الدخول في مجال النشر الإلكتروني من خلال التعاون مع مكتبة الفكر الإلكترونية لنشر الإصدارات المعدة إلكترونيًّا للإسهام في النمو المعرفي الصحيح وإيصال المعارف المفيدة لأوسع شريحة ممكنة.

هذا الكتاب هو انتخاب لقليل من المقالات المنوعة نشرت في أعداد مختلفة من مجلة "نصوص معاصرة" ضمن حوارات وردود على ما طرحه الدكتور عبد الكريم سروش ضمن نظرياته، جرى إعدادها من قبل مركز الموعود الثقافي لنشرها، سائلين الله عزّ وجل التوفيق.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

كلام الله ... كلام محمّد-- 5

بنية الوحي وحقيقة القرآن-- 13

القرآن والوحي، دراسة فلسفية ودينية: نقد نظرية سروش------------------------------ 121

نظرية وحيانية ألفاظ القرآن الكريم: أدلة وبراهين------------------------------ 155

نظرية بشرية الوحي والقرآن: فكرة بوذية مرفوضة------------------------------ 176

بشرية القرآن، تهمة لم يشهدها التاريخ------------------------------------ 182

سروش لم يعد مصلحًا دينيًا-- 185

شطحات سروش: هل كفر سروش أم أخطأ؟-------------------------------- 193

كلام الله ... كلام محمّد

حوار مع د. عبدالكريم سروش*

ترجمة: حسن مطر الهاشمي

«محمد خالق القرآن»، هذا ما يقوله الإصلاحي الإيراني المعروف عبد الكريم سروش في كتابه «بسط تجربه ديني» الذي سيتم طبع ترجمته في العام المقبل**. وبذلك يكون سروش قد تقدم على الكثير من دعاة الإصلاح المتطرفين من المسلمين. وقد بيّن سروش في مقابلته مع صحيفة (زمزم) خلاصة لهذه الآراء.

يعد عبد الكريم سروش رائد تيار الإصلاح في إيران. وقد كان في بداية أمره من أنصار الإمام الخميني، وقد شغل في باكورة قيام الجمهورية عدة مناصب حكومية، ومن بينها: مستشار الإمام الخميني في إصلاح الثقافة والتعليم. ولكن]بعد فترةٍ[شعر سروش بالإحباط، فتخلى عن هذه المناصب.

---

* مفكر إيراني معروف، وأشهر منظري الإصلاح الديني في إيران. طرح ـ وما يزال ـ سلسلة من النظريات التي أثارت جدلاً واسعاً، كان آخرها حول الإمامة والوحي.

** كتبت هذه المقالة ونشرت عام 2008م، وقد طبع بعد ذلك الكتاب ونُشر وترجم للعربية بعنوان: بسط التجربة النبوية.

ومنذ بداية العقد التاسع من القرن الميلادي المنصرم كان سروش واحداً من المثقفين الجمهوريين الذين بحثوا في (الديمقراطية الإسلامية)، ولكنه ابتعد تدريجياً وبشكل كامل عن نظرية الحكومة الإسلامية برمّتها.

إن دعوى سروش بسيطة، فهي تقول: إن جميع المعارف البشرية واستنباطاتها الدينية تاريخية، وهي عرضة للخطأ، وهو بذلك يحدث وهناً في الحكومة الدينية القائمة في إيران، فبعد احتمال تعرض جميع الاستنباطات البشرية وفهم الدين للخطأ لا يحقّ لأيّ شخص أن يدعي إقامة الشريعة باسم الله، حتى المؤسسة الدينية القائمة حالياً في إيران.

وقد أوضح سروش في كتابه «بسط تجربه نبوي»: أن نظريته بشأن إمكان تطرق الخطأ إلى المعرفة الدينية تصدق إلى حدٍّ في حق القرآن أيضاً، وبذلك يصنف سروش في عداد علماء آخرين، مثل: نصر حامد أبو زيد، ومحمد أركون، من الإصلاحيين الراديكاليين الذين دعوا إلى الدخول إلى القرآن من زاوية تاريخية. ولكنه قد تفوق على جميع أقرانه الراديكاليين في كتابه هذا، حيث يدعي أن القرآن ليس نتاجاً للظروف التاريخية الخاصة، والتي تكوّن في صلبها فحسب، وإنما هو كذلك منبثق من ذهن النبي محمدصلى الله عليه وآله، مع كل ما يحيط به من القيود البشرية، ويقول سروش: وهذا ليس بدعاً من الكلام، حيث أشار إليه الكثير من العلماء في القرون الهجرية الوسيطة.

(مايكل هوبنغ)

الوحي في عالم متطوّر

❖ كيف يمكن النظر إلى شيء مثل الوحي كحقيقة ذات معنى في عصر متطوِّر يدعو إلى التحرر من الوهم والخرافة؟

إن الوحي (إلهام)، وهو التجربة التي يخوضها الشعراء والعرفاء، وإن كان النبي يخوضها بدرجة أرفع وأسمى. في العصر المتطوِّر يمكننا فهم الوحي من خلال الاستعارة الشعرية، كما قال أحد الفلاسفة المسلمين: الوحي أسمى درجات الشعر. إن الشعر أداة معرفية تختلف في وظيفتها عن العلم والفلسفة، فالشاعر يتصور أن مصدراً خارجياً يلهمه، وإن الشاعرية استعداد وقريحة مثل الوحي تماماً، فيمكن للشاعر أن يفتح آفاقاً جديدة أمام الناس، وأن يريهم العالم من زاوية أخرى.

النبي والوحي بين الفعل والانفعال

❖ إنك تذهب إلى ضرورة اعتبار القرآن نتاج عصره، فهل يتضمن ذلك أن يكون للنبي دور فعال وحاسم في إبداع هذا النص؟

طبقاً للرواية التقليدية لم يكن النبي سوى وسيلة، حيث يؤدي إلى الناس ما يأتيه به جبريل، ولكنني أرى أن النبي كان له دور محوريّ في خلق القرآن. وإن الاستعارة الشعرية تساعد على توضيح هذه الحقيقة. فالنبي يحسّ ـ مثل الشاعر تماماً ـ أن قوة

خارجية تستحوذ عليه، ولكنه في الواقع وفي جميع الأحوال يقوم بكل شيء. وفي الحقيقة كون هذا الإلهام نابعاً من الداخل أو من الخارج لا موضوعية له هنا؛ إذ لا تمايز بين مستويات الوحي على الصعيد الداخلي أو الخارجي. إن هذا الإلهام ينبثق من (نفس) النبي، و(نفس) كل شخص إلهية، إلا أن النبي يختلف عن سائر الأشخاص؛ ذلك انه أدرك إلهية هذه النفس، ويخرج ما بالقوة إلى ما بالفعل، وقد اتحدت نفسه مع الله. وأرجو عدم إساءة فهم كلامي هذا، فإن هذا الاتحاد المعنوي مع الله لا يعني صيرورة النبي إلهاً، فهذا الاتحاد محدودٌ بحدود النبي ومحتواه البشري، وليس بما لله من سعة مطلقة في الأبعاد، وقد بين جلال الدين مولوي الشاعر العارف هذا المعنى الموهم للتناقض بأبيات شعرية مفادها: (إن اتحاد النبي مع الله مثل صبّ مياه المحيط في الدورق)، إلا أن النبي خالق للوحي بشكل آخر، فالذي يحصل عليه من الله هو مضمون الوحي، ولكن هذا الوحي لا يمكن بيانه للناس بذلك المضمون؛ لأنه يفوق مستوى فهمهم، بل هو فوق مستوى الكلمات، فهذا الوحي فاقد للصورة، وعلى النبي أن يصوغه في إطار صوري؛ ليجعله في متناول فهم الجميع، فيقوم كما يفعل الشاعر بصياغة هذا الإلهام بأدواته اللغوية وأسلوبه الخاص، وما يتوفر له من علم وثقافة، كما أن لشخصيته دوراً مهماً في صياغة هذا النص، وكذلك سيرته وحياته، بما في ذلك: والده، ووالدته، ومرحلة صباه، وحتى حالاته الروحية، ولو قرأتم القرآن تشعرون أن النبي أحياناً يكون في قمة الجذل والفصاحة، بينما يكون في أحيان أخرى مفعماً بالملل، وتجده عادياً في كلامه،

وجميع ذلك قد ترك تأثيره على النصّ القرآني، وهذه هي الناحية البشرية التامّة من الوحي.

عصمة الوحي وتعارض العلم والدين

❖ إذاً للقرآن جنبة إنسانية وبشرية، مما يعني إمكان وقوع الخطأ فيه؟

من جهة النظر التقليدية لا مجال لتطرق الخطأ في الوحي. وأما في العصر الحاضر فهناك الكثير من المفسِّرين يذهبون إلى اقتصار عصمة الوحي على المسائل الدينية البحتة، مثل: صفات الله، والحياة بعد الموت، وأسس العبادة، وأما في ما يتعلق بمسائل هذا العالم والمجتمع الإنساني فيمكن للخطأ أن يتطرق إلى الوحي من وجهة نظر هؤلاء المفسرين، فليس من الضروري أن يكون ما ذكره القرآن من الوقائع التاريخية وسائر الأديان والموضوعات العلمية صحيحاً، ودليل هؤلاء المفسرين أن هذا النوع من الأخطاء في القرآن لا يؤثر سلباً على نبوة النبي؛ لأنه إنما نزل منسجماً مع المستوى الفكري السائد في المجتمع آنذاك، وموافقاً للغته. أما أنا فأذهب إلى رأي آخر، حيث لا أتصور أن النبي قد تكلم بلغة قومه وهو يتمتع بعلوم ومعارف مختلفة، وإنما كان النبي مؤمناً بما يقول حقيقة، فكانت تلك هي لغته، وكان الفكر فكره، ولا أتصور أن علمه بشأن الأرض والكون وتكوين الإنسان أكثر من المعاصرين له، فان العلم الذي وصلت إليه الإنسانية

حالياً لم يكن للنبي علم به، وهذا لا يؤثر على النبوّة سلباً؛ لأنه إنما كان نبياً، ولم يكن عالماً أو مؤرِّخاً.

الجذور التاريخية لنظرية البعد البشري في القرآن

❖ تشيرون كثيراً إلى الفلاسفة والعرفاء في القرون الوسيطة، مثل: مولوي، فما هو مدى جذور نظريتكم حول القرآن في التراث الإسلامي؟

إن جذور الكثير من أفكاري تعود إلى القرون الإسلامية الوسيطة. وإن القول بأن النبوة عامة، ويمكن العثور عليها بين مختلف أصناف البشر، موجود في الإسلام الشيعي، وعند العرفاء؛ فالشيخ المفيد ـ وهو المتكلم الشيعي الكبير ـ لا يعتبر الأئمة أنبياء، ولكنه يمنحهم جميع خصائص الأنبياء، وكذلك يذهب الكثير من العرفاء إلى أن تجربتهم من نوع تجارب الأنبياء. كما جاء الاعتقاد ببشرية القرآن وأنه في معرض الخطأ بالقوة تلويحاً في كلمات المعتزلة، حيث ذهبوا إلى القول بخلق القرآن. ولم يعمد العلماء في العصور الوسيطة إلى بيان هذه الآراء بشكل واضح ومدوَّن، وفضَّلوا الإشارة إليها ضمن طيات كلماتهم وأقوالهم المتفرقة؛ رغبةً منهم في عدم إثارة البلبلة في أذهان عامة الناس، الذين لم يكن في وسعهم هضم هذه الأفكار واستيعابها. من باب المثال: نجد مولوي يقول: (القرآن مرآة ذهن النبي)، ومعنى ذلك أن شخصية النبي وحالاته المتغيرة، وأوقاته السعيدة والعصيبة، منعكسة في القرآن. أما ابن مولوي فقد ذهب إلى أكثر من ذلك

حيث قال في واحد من كتبه: إن تعدد الزوجات إنما أجيز في القرآن لأن النبي كان يحبّ النساء، ولهذا السبب أباح لأتباعه الزواج من أربع نساء!

التداعيات المعاصرة لنظرية البُعد البشري

❖ هل يجيز لكم الاتجاه الشيعي نشر أفكاركم بشأن بشرية القرآن؟

المعروف في الاتجاه السني من الإسلام اندحار مذهب الاعتزال العقلي أمام الأشاعرة القائلين بقدم القرآن وعدم خلقه، وأما الاعتزال الشيعي فقد واصل حياته نوعاً ما، وقد أوجد أرضية خصبة لنمو تراث فلسفي غني. إن الاعتقاد بخلق القرآن بين المتكلمين الشيعة كان اعتقاداً راسخاً لا منازع له. كما أننا نجد حالياً اقتراب الكثير من الإصلاحيين السنة من الموقف الشيعي في ما يتعلق بخلق القرآن، إلا أن علماء الدين في إيران مترددون في الاستفادة من المصادر الفلسفية في التراث الشيعي لفتح آفاق جديدة لفهم ديننا، فقد أقاموا سلطتهم على أسس من الفهم المحافظ للدين، وعليه فإنهم يخشون أن يؤدّي فتح باب البحث حول مسائل، من قبيل: ماهية النبوة، إلى فقدانهم لكل امتيازاتهم.

❖ ما هي تداعيات نظريتكم على المسلمين المعاصرين في تعاطيهم مع القرآن بوصفه كتاباً ومرشداً أخلاقياً؟

إن اعتبار القرآن بشرياً يسهّل عملية التمييز بين جوانبه الذاتية والعرضية، فبعض المسائل الدينية قد تكونت على نحو تاريخي وثقافي، ولم يعد لها موضوعية في العصر الراهن، وهذا الأمر يصدق على العقوبات الجسدية المذكورة في القرآن، فلو كان النبي يعيش في بيئة أخرى لما شغلت هذه العقوبات حيّزاً من رسالته الدينية. وعلى المسلمين المعاصرين أن يعملوا على ترجمة القرآن وفقاً لمقتضيات الزمن، حيث بالامكان العثور على مثلٍ آخر يحمل نفس الروح والمعنى، وهذا شبيهٌ بترجمة الأمثال من لغة إلى أخرى، حيث لا تتم ترجمتها حرفياً، وإنما يبحثون عن مثل آخر يحمل نفس الروح والمعنى والمضمون، فمثلاً: هناك مثل عربي يقول: «كناقل التمر إلى هجر»، فإذا أردنا ترجمته إلى اللغة الانجليزية نقول: «كحامل الفحم الحجري إلى نيوكاسل». إن الإدراك التاريخي والبشري للقرآن يجيز لنا ذلك. وأما إذا أصررنا على اعتبار القرآن كلاماً غير مخلوق، وأنه كلام الله الخالد، والذي يتعيّن علينا تطبيقه بحرفيته، فإننا سنقع في مشكلة عويصة لا يمكن حلّها.

بنية الوحي وحقيقة القرآن

حوار هام بين د. سروش

والشيخ جعفر السبحاني*

إعداد وتنظيم: محمد تقي فاضل

ترجمة: السيد حسن علي مطر الهاشمي

مدخل

أثار الرأي الذي أبداه الدكتور عبد الكريم سروش حول الوحي مؤخراً ضجّة في الأوساط الدينيّة، ودعا بعض المؤمنين الغيارى إلى التفكير والخشية من أن يؤدي ذلك إلى إنكار الوحي بالمصطلح التقليدي في علم الكلام، وقد تصدى عدد قليل من علماء الحوزة العلميّة إلى الإجابة عنه، بينما اكتفى الكثير بالتهويل وإثارة الضجيج وذرف الدموع وتهييج العواطف، مريحاً نفسه من عناء البحث والتحقيق، الأمر الذي شجّع شخصاً عديم الخبرة، ولا يحسن غير صنعة إنتاج الأفلام، أن يتسنم صهوة الفقاهة ليصدر فتاوى التكفير.

* مرجع ديني معاصر في قم المقدسة، ومن أبرز علماء الكلام وصاحب مؤلفات كثيرة جداً.

والذي نقدمه هنا ونضعه بين أيدي المفكرين والعلماء، هو الحوار الذي فتح حول هذا الموضوع، وننتهج فيه ــ بدلاً من أسلوب التكفير الذي هو سلاح الجهال والعاجزين ــ منهج التحقيق، الذي هو ديدن العلماء والمحققين.

إنّ الذي أخرج هذهِ المسألة من حياض الضجيج، وساقها نحو أودية العلم، إجابة الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني، وهو من مشاهير أساتذة الحوزة العلمية في قم المقدسة، حيث سار على نهج العلماء والأئمة^ وسعى إلى إجابة الدكتور سروش من خلال الطرق العلمية، والذي كان ملفتاً للانتباه إجابة الدكتور سروش العلمية عن إجابة الأستاذ جعفر السبحاني، ولو أمكن لنا أن نحذف بعض التعابير لأصبح الحوار من كلا الطرفين علمياً مئة بالمئة .

ومهما كان فهناك في هذا الحوار بعض الأمور المهمة لمن يتابع هذا الحوار:

1ــ لقد شغلت ظاهرة الوحي أذهان المحققين وعلماء الإسلام وغيرهم منذ القدم، وظهرت نظريات متضادة حتى بين علماء المسلمين والمتكلمين أنفسهم، ولا يتسع المجال لذكرها هنا (وقد ورد شطر منه في ردّ الدكتور عبد الكريم سروش)، فلا بد من القول: إن إعادة الآراء المتقدمة، وحتى أقوال علماء من قبيل الرازي، حول النبوة لم ينتج عنها سوى الإجابات العلمية.

2ـ لا شك في أن الدكتور سروش معروف في العالم الإسلامي كشخصية دينية مجدّدة، وقد تعرضت آراؤه للنقد والتمحيص كثيراً، وقد قدم حتى الآن آراء جديدة حول الدين والمعرفة، خاصة في مسألة (القبض والبسط)، وقد كان لطرح هذهِ الآراء بركات كثيرة على الحوزويين وذوي الغيرة الدينية، وبفضل هذه البحوث مال الطلاب إلى تعلم الكلام والفلسفة، وطبعت كتب عديدة في نقد وتمحيص تلك الأفكار. وربما كان من الأمور التي أفضت إلى تطور علم الكلام الحديث في حوزة قم العلمية إثارة الشبهات التي أدت إلى نظرية القبض والبسط.

3 ـ يعدّ الشيخ جعفر السبحاني من العلماء القلائل الذين درسوا أو حققوا في علم الأصول والفقه، وتابعوا تفسير البحوث الكلامية، وإدراجها كمنهج تدريسي وتحقيقي على يد أساتذة من قبيل مصطفى ملكيان، وأساتذة مُبدعين آخرين في مركز الإمام الصادق التحقيقي، الذي تم تأسيسه بجهود منه، وألف أو أشرف على كتب كلامية كثيرة، وقد أُقرّ بعضها كمنهج دراسي في الحوزة العلمية.

وقد كانت هناك حوارات علمية كثيرة بين الشيخ السبحاني والدكتور سروش، وقد خرج كل واحدٍ من هذين العلمين بنتائج قيمّة من هذهِ المناقشات، على أمل أن يستمر هذا الحوار حول مسألة الوحي، والتي تعدّ من المسائل الكلامية الرئيسة، بل كانت هي سبب نشوء علم الكلام حيث الاختلاف في مسألة الوحي (كلام الله) هل هو حادث أو

قديم؟ لا شك في أنّ هذهِ الشبهات والحوارات لو جوبهت في الماضي بالتهويل والضجيج وسياط التكفير وخنقت في مهدها لما شهدنا في عصرنا كل هذا التراث الثقافي. إن أمنية كل محقق أن يعمّ علم وحلم أمثال الأستاذ السبحاني في الحوزات العلمية ومحافل العلوم الدينية، ولا يسود الذعر من طرح البحوث والمسائل الجديدة. ولو أن الشهيد المطهري كان قد أوجس خيفة عند دخوله في الجامعة من الشبهات الماركسية والوجودية وخلع رداء الحلم عن قوام علمه لما بلغ ما بلغ من المدارج العلمية، ولو أغلق الإنسان باب ذهنه دون أفكار الآخرين، وخلع على كل ما ورثه من أفكار المتقدمين رداء التعصب، وسلك في تدينه مسلك الخوارج والأشاعرة، فإنه سيسلك طريقاً مخالفاً لتعاليم القرآن والنبي صلى الله عليه وآله، حيث كان شعاره الدعوة إلى التعقل في جميع المواطن.

4ـ إن الذين لا يسعهم تحمّل طرح هذهِ البحوث، لو كان لديهم القدرة على التحقيق والتتبع، وراجعوا كتب الأئمة عليهم السلام في الاحتجاج، لوجدوا أن الأئمة عليهم السلام لم يستخدموا بإزاء الشبهات ــ التي يزعم الكثير من العلماء المعاصرين تفشي فسادها في كل مكان ــ سوى سلاح العلم وذخيرة الحلم، ابتداءً من شبهات التجسيم إلى سهو الأنبياء وأخطائهم، وإنكار المهدوية وعصمة الأئمة، وعلمهم بالغيب، مما كان يطرح بحضرتهم عليهم السلام، ولولا إجاباتهم العلمية المبثوثة في تضاعيف الكتب لما

بلغت المعارف الإسلامية والشيعية هذا المستوى من القوّة والرصانة. ومن الأمور التي تثير الحسرة عند كل مفكر عدم ظهور أمثال الدكتور سروش بين الحوزويين والجامعين، ولو لم يقترن هذا الحضور بالمسائل السياسية لكان من المحتمل أن ينحو تفكير أمثال الدكتور سروش منحىً آخر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أولئك الذين يواجهونه علمياً.

وما أروع الحديث الوارد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، حيث قالوا: «اضربوا بعض الرأي على بعض حتى يتولد منه الصواب»

إن طرح المسائل التي تبدو غريبة لدى البعض إذا جوبهت بالشجب والإنكار، واعتبرت مختومة، دون معالجتها بأسلوب علمي، فسوف لا ينتج عنها إلا مزيدٌ من الشبهات غير المجاب عنها، لقد طرح السيد مجتهد الشبستري بحثاً حول القراءة النبوية عن العالم فأدى ذلك إلى إغلاق مجلة المدرسة، فاختفى الكثير من الأجوبة العلمية، أو المسائل الأخرى التي كان من الممكن طرحها إلى جانب ذلك البحث، وذلك لأن إغلاق مجلة بسبب نشرها لمقالة علمية تقتل طموح المحقق، فبماذا يفكر أولئك الذين يتصورون أنفسهم قد أدوا ما عليهم من الوظيفة الشرعية والثقافية بإغلاقهم مجلة، ومنعها من الصدور، في حين أنهم لا يمنعون سوى تقدم العلوم وانتعاشها .

5ـــ من المشاكل التي يعاني منها بعض العلماء الكبار؛ بسبب كثرة مشاغلهم، الاكتفاء بالتقارير التي تنشرها وسائل الإعلام عن الحوارات العلمية، وللأسف الشديد علينا

القول: إن الاتجاهات العلمية أخذت في عصرنا الحاضر طابعاً حزبياً وسياسياً، فيتم الترويج لمقالة أو رأي علمي بإعطائه عنواناً جارحاً أو مثيراً. وبطبيعة الحال لا يمكن الحكم على مقالة أو رأي علمي دون قراءته بأجمعه بدقة وتمحيص. ففي هذا العصر؛ وبسبب تطور العلوم وشموخ العقل الناقد، فقد الكثير من الأمور ـ التي كانت مقبولة في السابق ـ بداهتها، وخضعت لمجهر النقد والتحليل، فعلى علماء الحوزة أن يتقبلوا عناء البحث، وإظهار هذهِ المسائل على العلن، وعلى الطلاب والمبدعين إن يواجهوا هذهِ المشاكل، ولا ينبغي لنا أن نجيز طرح مسألة علمية وشجبها من خلال حمل عدد من اليافطات فور الانتهاء من صلاة الجمعة، أو في الأماكن الأخرى، وحتى من خلال الأبواق والخطب؛ فإن مثل هذهِ السلوكيات مرفوضة من قبل أئمة الدين، ولا يستسيغها العالم المعاصر.

نص المناظرة المكتوبة بين الشيخ السبحاني والدكتور سروش

تنويه

بعد نشر البحوث والنظريات الأخيرة للدكتور عبد الكريم سروش حول القرآن الكريم والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله عبر وسائل الإعلام المكتوبة والإلكترونية بادر عدد من المفكرين في الحوزة والجامعة إلى تقييم هذهِ البحوث وإخضاعها للنقد والتمحيص، وكان أحد هذهِ الأجوبة مقالاً بقلم الشيخ جعفر السبحاني، وبعد ذلك بعث الدكتور

سروش رسالة جوابية على مقال الشيخ السبحاني، فردّ الأخير على هذهِ الرسالة ثانية، وقد تم نشر هذهِ الرسائل الثلاث في الصحف.

❖ الرد الأول للشيخ جعفر السبحاني

تمهيد

لقد بلغت عداوة الغرب للإسلام ذروتها، بعد أن حمل الإعلام الهولندي لواءها بالأمس ليدفعه اليوم إلى الإعلام الدانمركي، فيبلغنا أن البلد الأخير قد نهض بأعباء مناهضة الإسلام من خلال الفن التشكيلي، ويسعى إلى تشويه صورة النبي والقرآن أمام الرأي العام من خلال الرسوم الكاريكاتورية وعرض الأفلام، في مثل هذهِ الظروف والأوضاع قرأت حواراً للسيد عبد الكريم سروش قد نُشر على أحد مواقع الإنترنت.

ولا أستطيع القول من دون دليل قاطع أن ما قرأته في هذا الحوار يمثل رأي الدكتور سروش، إلا أنني أستطيع أن أعتبر سكوته وصمته إزاء هذا التقرير ذنباً لا يغتفر. ففي الظروف التي شمر فيها ملاحدة الغرب عن سواعدهم لمحاربة الإسلام وتهميش المسلمين يصدح شخص عاش في الأوساط الإسلامية، وترعرع بين العلماء والمفكرين، ولطالما كان كلامه زينة الإعلام الإيراني، بكلام مفاده أن القرآن الموجود بين أيدينا هو من صنع النبي، وقد تفتق عنه ذهنه! وإنّ النبي كان له الدور المحوري في إيجاد القرآن!

لقد أرسلت رسالة مفتوحة للسيد سروش نوهت فيها إلى شطحاته في مسألة الإمامة والخلافة، وطالبته مرة أخرى بالعودة إلى أحضان الأمة الإسلامية، وخاصة العلماء والحوزات العلمية، وليعلم أن هذا النوع من الضوضاء والضجيج سريع الزوال، فهو كزبد الأمواج التي تتكسر على رمال السواحل، ثم تضمحل ولا يبقى منها أثر، ولا يبقى غير الحق والحقيقة، وكنت أتصور أن تلك الرسالة الأبوية ستؤثر فيه ــ إذ أعرب الذين قرأوها عن إعجابهم بها ــ إلا أن حواره الأخير قد زاد من حزني وأسفي، وأخذت أفكر في مدى سعة هوّة الانحراف لدى هذا الشخص، وكونها آخذة في الاتساع يوماً بعد يوم، وطفقت أتساءل عن سبب ذلك، مع أنه ربيب الحوزة والجامعة. وبرغم صباحة وجهه وعذوبة بيانه، وقد كان مدرساً لنهج البلاغة مدة طويلة، وكان يفسر خطبة همام بأسلوب مؤثّر وأخاذ، فما الذي أصابه يا ترى حتى يبتعد عن هذهِ المجموعة كل هذا البعد؟!

إلا أنني سأتجاوز هذهِ المقدمة، وأبقي على بوابة الأمل في صلاحه مفتوحة على مصراعيها، من خلال كتابة هذهِ الرسالة، ونقد أفكاره، عسى أن يقرأها، ويعود إلى أحضان الإسلام.

مذهب الشك أو السفسطة، آفات ومخاطرات

ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان القديمة جماعة تقول بمذهب الشك في كل شيء، حتى في وجودهم، وأخذوا يشيعون أفكارهم وعقائدهم الغريبة، وقد سيطر الفكر السفسطائي على الذهنية اليونانية ردحاً من الزمن، حتى تم القضاء عليه بعد ذلك من قبل الحكماء والعلماء الكبار، كسقراط وأفلاطون وأرسطو، حيث أظهروا المغالطات التي كانت تنطوي عليها أدلتهم، وتمكنوا من القضاء على وباء السفسطة، وتمكن أرسطو من خلال تدوين علم المنطق من تنظيم الفكر على الأسس الواقعية، وبرغم ذلك لم يمض وقت طويل حتى ظهر مذهب آخر باسم (اللاأدرية) على يد (بيرهون، 275 ـ 365م)، وتحول مذهب إنكار الواقع إلى مذهب الشك المطلق، إلا أن هذا المذهب لم يكتب له البقاء طويلاً، وسرعان ما دفن في مقابر التاريخ.

إن لفلاسفة الإسلام، كالشيخ الرئيس، ومن بعده صدر المتألهين، كلاماً جميلاً في هذا الشأن، يمكن للراغبين مراجعته في كتابنا «نظرية المعرفة في الفلسفة الإسلامية».

وقد ظهر مذهب التشكيك في الانبعاثة الغربية التي حدثت مؤخراً، متخذة هيئة علمية، وقد تجلت همم مجموعة من فلاسفة الغرب ـ بدلاً من رفع بناء الفلسفة الرصين ـ في تقويض هذا البناء ثانية، وكان كلّ ما أبدعوه هو الحديث بشك وترديد، وكما قال السيد

فروغي: لم يبلغ إبداع الفلاسفة الإنجليز إلا أن حطموا صرح الفلسفة الرفيع الذي كان قائماً، دون أن يضيفوا شيئاً جديداً.

لا جدال في كون الشك معبراً إلى اليقين، فما لم يشك الإنسان لا يصل إلى اليقين، إلا أن الشك إنما يكون مرغوباً فيه إذا كان قنطرة موصلة إلى اليقين، وأن يكون ممراً لا مقرّاً، ولكن للأسف الشديد يبدو أن الشك عند هذهِ الجماعة قد أضحى مقراً، ولم ينظروا إليه كممرّ.

والآفة الأخرى الناتجة عن هذا النهج التشكيكي تكمن في طرح النظريات دون إقامة أدنى دليل أو برهان عليها، وكلما قيل لهم: ما هو دليلكم على ذلك؟ يقولون (I think): أي: (أنا أفكر)، ولكن سؤالنا هو: لماذا تلجؤون إلى مثل هذا التفكير؟ وإذا قيل لهم: هاتوا برهانكم يغدو السؤال محظوراً!!

يقول الشيخ الرئيس: كلما قبل شخص كلام آخر من دون دليل يكون منسلخاً عن الفطرة الإنسانية، ولكن للأسف الشديد يبدو أن هذا الداء (التنظير من دون دليل) ـ ومن خلال الخطب الحماسية ـ آخذ في الاتساع تدريجياً، في حين أن منطق القرآن يقول: {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ}

لقد أبدى السيد سروش في بحثه السابق (بحث الإمامة والخلافة) جفاء بالنسبة للأئمة عليهم السلام، إلا أنه تمادى في بحثه هذا بشكل أكثر، حيث تطاول على حريم الوحي والقرآن، وأنا أسأل الله أن يقف عند هذا الحد، ولا يتمادى أكثر فيعرض سعادته الأخروية (وهو يريدها قطعاً) إلى الخطر.

خلاصة نظرية البُعد البشري في الوحي والقرآن

الحقيقة أنه وقع في بيان نظريته في الاختلاف والتناقض، ولم يتمكن من لملمة أطرافها وحصرها في نقطة واحدة، وقد خبط، كما يقول المثل، خبط عشواء، حتى إذا تم الاعتراض على نقطةٍ أمكنه المحيص عنها، وهنا ننقل كلامه في عدة نقاط :

1. تجربة كتجربة الشعراء!

يقول الدكتور سروش: إن الوحي إلهام، وهو نفس التجربة التي يتلقاها الشعراء والعرفاء، وإن كان النبي يحصل عليها بمستوى أعلى، وإننا نفهم الوحي في عصرنا المتطور من خلال الاستفادة من الاستعارات الشعرية، وقد ذكر أحد فلاسفة المسلمين أن الوحي أعلى درجات الشعر.

وقفة تحليلية نقدية

إن هذهِ النظرية ليست نظرية جديدة، فهي نفس ما كان يقوله المشركون في مكة بشأن تفسيرهم لظاهرة القرآن، حيث كانوا يقولون: كما يخلق امرؤ القيس المعاني والألفاظ في

ضوء الإلهام كذلك يصنع محمد، حيث يصوغ الألفاظ والمعاني، ومن المؤكد أن مرادهم من الشعر ليس هو الشعر المنظوم، بل هو ما يتوصل إليه الإنسان ويتخيله عن طريق التفكير، سواء أكان في قالب النظم أو في قالب النثر، والقرآن الكريم ينقل هذهِ النظرية عنهم وينتقدها، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} [الصافات: 36]، وقال أيضاً: {فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} [الطور: 3]

وأحياناً يفسرون القرآن بأحد طرق ثلاثة تنتهي بأجمعها إلى غاية واحدة، وهي أن القرآن من بنات أفكار النبي، فيقولون حيناً: إنها أحلام ومنامات، وتارة: إنه متقوّل على الله، وتارة أخرى: إنه شاعر صاغ تصوراته في قالب القرآن، قال تعالى :

{بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ} [الأنبياء:5]

وقال تعالى في نقد هذهِ الأقوال: { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ} [الحاقة: 41]، وفي آية أخرى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} [يونس: 69].

إذاً فقد صنف المشركون النبي في عداد الشعراء، وإن النظرية التي نناقشها هنا ليست سوى صدىً لما كان يردده المشركون، وإن كان قد عبر عنها بكلمات أسمى، إلا أن منشأ القولين واحد.

ولو أنه قال: إن الشعراء كانوا يستلهمون أفكارهم من أنفسهم، في حين أن النبي يستلهمها من المقام الربوبي، لكان حمل المتعاطفين في كلامه من باب عطف المتباينين، وقد ثبت في محله أنّ عطف المباين على المباين مُخُلٌّ وقبيح.

وإذا أعرضنا عن ذلك نتساءل عن دليل هذهِ النظرية؟ هل هناك شاهد عليها؟ للأسف فإن هذا الحوار بأجمعه عبارة عن سلسلة من التصورات والمفاهيم غير المدعومة بدليل يثبتها، فلو كان القرآن في حقيقته مجرد خيال شعري، وإن كان على مستوى أعلى، فما معنى تحديه ولو بالإتيان بسورة واحدة مثله؟ فأي شاعر تحدى الآخرين طوال حياته الشعرية وأعجزهم أن يأتوا بمثل قصائده إلى يوم القيامة؟

وهنا يمكن القول أيضاً لصاحب هذهِ النظرية: إن التفسير الذي تقدمه عن القرآن لا يعدو في واقعه أن يكون نوع تجربة شعرية ليس إلا، أي إن نفسكم قد تفتقت عن هذهِ النظرية، وألقتها على صفحة الذهن، وأجرتها في مداد القلم وأطراف اللسان، دون أن يكون هناك واقع وراءها.

فلو كان الشعر وما شابهه فاقداً لقيمة الخلود كان كلامك من هذا السنخ أيضًا.

2. فرضية خلق النبي للقرآن وإبداعه له!

وقال في موضع آخر: إن الاستعارة الشعرية تساعد على توضيح هذهِ المسألة، فالنبي يستولي عليه نفس إحساس الشاعر، وإن هناك قوة خارجية تسيطر عليه، ولكن في الحقيقة فإن شخص النبي في تلك الحالة يمثل كل شيء، فهو الخالق والمبدع، ولا موضوعية للحديث في كون هذا الإلهام من الداخل والخارج؛ إذ لا تفاوت ولا تمايز على مستوى الوحي بين الداخل والخارج.

الخلط بين التجربة الشعرية والتجربة النبوية، اتّباع سبيل المستشرقين!

إن هذا الكلام يعني أن صاحب هذهِ النظرية يرى أن القرآن تجلٍّ لما يكمن في شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهو ما يصطلح عليه بالوحي النفسي، وإن أول من فسر الوحي بشأن الأنبياء من خلال تجليات الشخصية الباطنة هم القساوسة والمستشرقون في بعثاتهم التبشيرية، وأكثر من أثار الغبار حول هذهِ المسألة مستشرق يدعى (درمنغهام)، حيث سعى من خلال محاولاته الصبيانية إلى التعريف بمصادر القرآن، وأن منها تجليات الشخصية الباطنية، وقد بيّن نظريته على النحو الآتي: لقد أدرك محمد بعقله الباطن ــ أو بعبارة أخرى عصرية: شخصيته الباطنية ــ خواء الشرك، ولكي يبلغ مقام النبوة جرّد نفسه لعبادة الله، وأخذ ينفرد في غار حراء متعبّداً حتى بلغ به الإيمان أعلى درجاته، واتسعت آفاقه الفكرية، وتضاعفت بصيرته، حتى غدا جديراً

بتحمل أعباء النبوة وهداية الناس، فكان دائم التفكير حتى أيقن أنه ذلك النبي الذي اختاره الله لهداية الناس، وقد كان هذا الوعي يتراءى له وكأنه وحي من السماء ينزل عليه وأن ذلك الخطاب يبعثه الله إليه عن طريق جبرائيل[1].

إن الذي يميز إحساس الشعراء عن إحساس الأنبياء عليهم السلام، هو ذلك الأمر الذي لم يعترف الدكتور سروش بموضوعيته، فإن مصدر إلهام الشعراء ينبع من داخلهم، في حين أن مصدر إلهام الأنبياء ينزل عليهم من الخارج.

وإن الذين لا يمتلكون باعاً في المسائل الفلسفية والعرفانية لا يستطيعون التفريق بين هذين النوعين من الإلهام والإحساس، ولذلك كان المشركون في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله؛ بسبب عدم قدرتهم على التمييز بين هذين النوعين من الإحساس، يتساءلون عن كيفية إمكان أن يلهم شخص من خارجه ويؤمر بهداية الناس؟ وقد عكس القرآن تفكيرهم هذا على النحو الآتي: {أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} [يونس: 2].

لقد كانت للمناوئين في مواجهة الوحي المحمدي عبر التاريخ توجيهات وتصورات، إلا أن ماهية هذهِ التوجيهات والتفسيرات الباطلة واحدة في جميع العصور، فالذي نشهده

---

(1) الوحي المحمدي، ص 86.

حالياً هو نفس التهم والشتائم والسفاسف التي كان يطلقها أبو جهل وأبو سفيان، ولكن بأسلوب عصري بعد إلباسها ثوب التحقيق العلمي.

3. نظرية الصياغة النبوية للمفاهيم الإلهية: أزمة فراغ الأدلّة

ذهب صاحب هذهِ النظرية في العبارات المتقدمة عن طريق الإجمال والتفصيل إلى أن القرآن من صنع النبي، وأن النبي صلى الله عليه وآله هو خالق القرآن، إلا أنه قال في هذا الحوار نفسه في موضع آخر: كما أن النبي خالق للوحي بنحو آخر، أي إن الذي يتلقاه من الله تعالى هو مضمون الوحي، إلا أنه من غير الممكن نقل هذا المضمون إلى الناس؛ لكونه فوق مستوى فهمهم، بل هو فوق الكلمات، فالوحي لا صورة له، ومسؤولية النبي أن يعمل على تصوير هذا المضمون ليضعه في متناول جميع الناس.

فهو يعتبر أن المفاهيم والمعاني صادرة من عند الله، إلا أن الشكل والصورة والألفاظ والكلمات من صنع النبي، وبذلك ينكر شطراً من إعجاز القرآن المتمثل في جماليه الألفاظ ومتانة التعبير.

وعليه يكون القرآن عملاً مشتركاً بين الله والنبي، وكأنّ القرآن شركة استثمارية، يكون فيها التمويل على الله، والتسويق على النبي الأكرم ـ والعياذ بالله ـ.

وهنا نتساءل: أليست هذهِ النظرية أدنى من النظرية الأولى؟ ففي تلك النظرية كان كل شيء ينسب إلى رسول الله، سوى رابطة ضعيفة مع الله، ولكن هنا توجد مشاركة لا صورة لها من قبل الله، وصياغة وتصوير من قبل النبي!

وكذلك ينبغي أن نسأل: ما هو دليلكم على هذهِ المشاركة؟ فالله القادر على إنزال المفاهيم هل يعجز عن تصويرها وصياغة قوالبها اللفظية؟

مضافاً إلى ذلك فإن القرآن يشهد على خلاف هذهِ النظرية، حيث أمر النبي مراراً أن يقول: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد}، أي أن المفاهيم والصور كلاهما من عند الله.

4. فرضية الثأثير التاريخي في بناء القرآن، إشكالية التناقض مع النص القرآني!

يذهب صاحب هذهِ النظرية حيناً إلى أن النبي قد أبدع القرآن بشكل مستقل، ويقول: إنهصلى الله عليه وآله تولى كل شيء، وكان له دور محوري؛ وتارة يقول: كان هناك نوع من المشاركة بين الله والنبي؛ ويحاول القول تارة أخرى: إن الظروف التي حكمت حياة النبي أنتجت هذهِ المفاهيم والأفكار والمعاني، وبعبارة أخرى: يرى أن الزمان هو الذي أبدع القرآن الكريم، حيث قال: «لقد كان لتاريخ حياته وحياة أبيه وأمه، وفترة طفولته وصباه، وحتى حالاته الروحية، دور في إبداع القرآن، فإذا تلوتم القرآن تشعرون أن النبي صلى الله عليه وآله كان في بعض الأحيان فرحاً طروباً وفي غاية الفصاحة، في حين

تجدونه في أحيان أخرى مفعم بالضجر، ويلجأ إلى بيان مراده بكلمات عادية جداً، مما يعكس جانب الوحي البشري».

وهنا نقول: إنه يحاول من خلال هذا الكلام تعريف القرآن على أنه كتاب بشري مئة بالمئة، وأن النبي صلى الله عليه وآله شأنه شأن سائر المؤلفين الذين يتأثرون في كتاباتهم بالظروف التي تسود حياتهم، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا يؤكد الله تعالى على نفي ذلك، ولا يرى تأثيراً لغير عامل الوحي في صنع القرآن، حيث قال: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم 3ـ5].

إنّ الحديث عن بشرية القرآن الكريم يتناقض ومئات الآيات القرآنية، ومنها:

{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} [النساء: 82].

{الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: 1].

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2].

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: 92].

فبعد هذا البيان الصريح كيف نعده كتاباً بشرياً، وأنه من صنع الإنسان، هذا ولم يشك أحد في صدق النبي صلى الله عليه وآله وأمانته .

قال تعالى: {نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [القصص: 3].

تصرح هذهِ الآية بأن تلاوة الآيات إنما هي من قبل الله، وأن كلا من القالب والمحتوى منه تعالى.

إلى هنا قمنا ببيان أصل نظريته، التي أفادها بأربع صور مختلفة، دون أن يدعمها بدليل، ونفس هذا التناقض خير شاهد على خواء هذهِ النظرية، وعدم قيامها على أيّ أساس.

بين عصمة الوحي وعلم الأنبياء

ولديه أيضاً إلى جانب هذهِ النظرية سلسلة من الشطحات والكلام غير اللائق، نشير إليها بشكل عابر:

1ــ يقول الدكتور سروش: يذهب أكثر المفسرين المعاصرين إلى عصمة القرآن والوحي عن الخطأ في المسائل الدينية البحتة، كصفات الله، والحياة بعد الموت، وأسس العبادات، ويذعنون بإمكان خطأ الوحي في المسائل المتعلقة بهذا العالم والمجتمع الإنساني، وأن ما يقوله القرآن حول الوقائع التاريخية وسائر الأديان وسائر الموضوعات العلمية الأرضية ليس من الضروري أن يكون صحيحاً. ويستدل أكثر هؤلاء المفسرين بأن هذا النوع من

الأخطاء في القرآن لا يضرّ بنبوّة النبيصلى الله عليه وآله؛ لأن النبي إنما يتحدث بالمستوى العلمي الذي توصل له الناس في عصره، كما أنه يتحدث بلسان قومه.

وهنا نقول: إنه يستعمل كلمة (أكثر)، ويتهم بها المفسرين المسلمين، فأيّ مفسر مسلم ذهب إلى إمكان خطأ القرآن في ما يتعلق بمسائل الحياة طوال هذهِ القرون الأربعة عشر؟ لا ينسب هذهِ الفرية إلى القرآن غير المستشرقين وأذنابهم، من قبيل: رئيس الفرقة القاديانية، والمتأثرين بهم، كبعض الكتاب المصريين.

مضافاً إلى أننا نسأل عن معنى التفريق في موارد الخطأ، فيقال بأن النبي في ما يتعلق بما وراء الطبيعة لا يقول غير الحق، ولا يرى سوى الواقع، وأما في ما يتعلق بالمسائل العينية والملموسة فيمكن أن يجانب الصواب والحقيقة؟ ولو تحدّث مفسر واحد حول آيةٍ له فيها رأي شاذ لا يكون كلامه دليلاً ساري المفعول وقاعدة كلية.

يعدّ القرآن الكريم علم النبي أعظم الفضائل الإلهية، ويقول: { لَوْلاَ فَضْلُ اللهِّ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِّ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء:113]، فكيف يكون العلم الذي عدّه القرآن عظيماً قابلاً للخطأ في القسم الثاني من أقسام الوحي؟

2 ــ ثم يتمادى أكثر فيصف علم النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: لا أتصور أن علمه صلى الله عليه وآله يفوق علم المعاصرين له في ما يتعلق بالأرض والكون والجينات الوراثية، ولم يكن لديه العلم الذي نمتلكه حالياً، ولا يضر هذا بنبوته، لأنه إنما كان نبيّاً، ولم يكن عالماً أو مؤرخاً.

وهنا نتساءل: ما هو دليلكم على أنه لم يكن على علم بهذِهِ الأمور، وأن علمه بشأنها لم يتجاوز علم الجاهليين؟

لا نريد البحث هنا حول الإعجاز العلمي في القرآن؛ لأننا تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في كتابنا (حدود الإعجاز)، فقد كشف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من طريق الوحي، وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام كعلي عليه السلام في نهج البلاغة، والإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية، النقاب عن سلسلة من الحقائق العلمية التي لم يكن بإمكان الناس في ذلك العصر وما بعده حتى تصورها، فمن عدم الإنصاف أن ننكر جميع تلك الحقائق العلمية الواردة في تلك الكتب، ثم نعتذر بأنه صلى الله عليه وآله إنما كان نبيّاً ولم يكن عالماً، وكان رسولاً ولم يكن مطلعاً على الأسرار !

اتهام المعتزلة بالقول ببشرية القرآن

وقد حاول صاحب هذهِ النظرية القائلة بأن القرآن من صنع النبي أن يعثر لنفسه على شريك يحمل عنه وزر هذهِ الفرية، فلم يجد غير المعتزلة، فقال: إن الاعتقاد بأن القرآن نتاج بشري، ويمكن عليه الخطأ بالقوّة قد جاء التلويح به في عقائدهم.

ونقول: إن المعتزلة رغم انقراضهم، وعدم بقاء شخصية علمية بارزة منهم، إلا أن كتبهم بمتناول الجميع، وحاشا هذهِ الفرقة أن تقول بخلق القرآن بمعنى كونه من صنع النبي صلى الله عليه وآله.

ولقد تم طرح هذه المسألة أول مرة في القرن الهجري الثاني من قبل النصارى في البلاط العباسي، حيث أثاروا مسألة كون القرآن حديثاً أو قديماً، فذهبت جماعة إلى قدمه، بينما ذهبت جماعة أخرى إلى حدوثه، فقال المحدّثون بقدم القرآن، وقال المعتزلة بحدوثه؛ إذ لا قديم بالذات سوى الله، وجميع ما سواه حادث، ومنها القرآن؛ لأنه فعل الله، وفعله لا يخرج من دائرة الحدوث، وإذا قالوا بكونه مخلوقاً فبمعنى أنه مخلوق لله، لا أنه مختلق، وأنه من صنع بنات أفكار النبي، ولذلك أصرّت رواياتنا على عدم وصف القرآن بالقدم أو الحدوث؛ لما في القدم من شائبة الشرك، ولما في وصفه بكونه مخلوقاً من محذور إساءة الاستفادة والذهاب إلى اختلاقه، وأنه من صنع النبي، ولذلك كان المشركون في عصر

رسول الله صلى الله عليه وآله يستخدمون هذا التعبير ويقولون: { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ } [ص: 7].

مولوي والعرفاء بين بشرية القرآن وإلهيته

ولكي لا يبقى وحيداً أيضاً لجأ إلى مولوي وقال: إن القرآن مرآة ذهن النبي، والدارج في صميم كلام مولوي أن شخصية النبي وتغيّر أحوالها وأوقاته السعيدة والعصيبة منعكسة بأجمعها في القرآن.

ونقول: من السهل أن تنسب شيئاً إلى شخص، ولكن من الصعب إثبات ذلك، ففي أي بيت ورد ما استفاده الدكتور سروش؟ والحال أن لمولوي مئات الأبيات الشعرية التي تتحدث بصراحة عن خلاف ما يقوله سروش، ومنها ما مضمونه: «ما إن نزل القرآن حتى وصفه الكافرون بأنه من الأساطير، في حين أنه كان جارياً على لسان النبي، ولكن من قال: إنه ليس من الحق فهو كافر.»

تحديد وظيفة المسلمين

وفي ختام كلامه يتوجه إلى المسلمين ويحدد لهم وظيفتهم، ويقول: إن واجب المسلمين حالياً أن يترجموا جوهر القرآن بما يتناسب واختلاف الزمان.

وسؤالنا: بعد أن ذهبتم إلى كون هذا الكتاب بشرياً وقابلاً للخطأ، فما هي الضرورة إلى ترجمته وتفسيره؟ وما هي ضرورة التستر على هذهِ الأخطاء؟ كما أنكم بتعريف القرآن بوصفه كتاباً بشرياً يحتمل في حقه الخطأ قد انسلختم عن المجتمع الإسلامي، وعليه لا نرى حاجة لنصائحكم، فالذي يجوز له أن ينصح هو الداخل في ربقة المجموعة، وأما الخارج عنها فلا يصلح لقيادتها ونصحها ووعظها.

وفي الختام أكرر القول بأنني قد كتبت هذهِ الرسالة والحزن والألم يعتصرني بشدة، ولكن مع ذلك آمل أن لا يكون هذا الحوار قد جرى مع الدكتور سروش، وأن لا يكون ما ورد فيه قد صدر عنه حقيقة، أو نتمنى في الأقل أن يكون المترجم أو المترجمون قد أخطؤوا في ترجمتهم، وفي هذهِ الصورة عليه أن يقوم برفع الشبهات لتعود المياه إلى مجاريها، وأطلب من صاحب النظرية مراجعة كتابنا (نقد بيست وسه سال) حول الوحي النبوي والشبهات التي أثارها المستشرقون وأذنابهم حوله، فقد أثبتنا فيه بوضوح أن جميع هذهِ الشبهات المنمقة تعبير آخر عن الشبهات التي أثارها المجتمع الجاهلي، فالمحتوى واحد والأسلوب مختلف، والفارق بينهما أن العربي الجاهلي في عصر الرسالة لبساطته كان يطلق الشبهة عارية صريحة، في حين أن المتجددين يمنحونها صبغة علمية، ويقدّمون السراب بوصفه ماءً!

جعفر السبحاني

6/ 12/ 1386 هـ ش (2008م)

❖ البشر والبشير: جواب د. سروش على رسالة الشيخ السبحاني

بعد التحيّة والسلام،

لقد قرأت رسالتكم الأبوية الموقرة، فوجدتها مشتملة على الموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ولست أشك في أن واجبكم الديني وغيرتكم الإيمانية هي التي دفعتكم إلى كتابتها، ولا أجيز لنفسي أن أقول ـ كما قلتم ـ أنّ هناك أيادي خفيّة تعمل على توظيفكم لتحقيق مآربها، إذ ليس هناك ما يدعو إلى ذلك، ولا أمتلك دليلاً عليه، ولا أجد التفوّه بمثل هذهِ الكلمات لائقاً بالبحث العلمي والمنصف، وقد سبقكم أربعة من فضلاء الحوزة العلمية، فأسهموا في مناقشة هذا البحث بأسلوب علمي وتحليلي واستدلالي بعيد عن التهويل والتكفير، وقد عجبت من قولكم: يمكنني اعتبار سكوته تجاه هذا التقرير ذنباً لا يغتفر، فهل أيقنتم بأنني آثرت السكوت ولم أتكلم في هذا المورد؟ ألم تقرأوا الحوار الذي أجريته مع جريدة (كارگزاران) حول هذا الموضوع؟ أم أن الذنب يعود إلى أولئك الوشاة الذين يعملون على تقطيع الحقائق، فينقلون منها ما يروقهم، ويُعرضون عما لا يروقهم؟ وهنا سأنقل ذلك الحوار بعينه، ثم سأتعرض بالتفصيل إلى شطر مما ذكر إجمالاً، وستجدون فيه إجابات صريحة وكافية عن الكثير مما ذكرتموه، وذكره آخرون غيركم، من الانتقادات، وإني لعلى ثقة من أنكم لو سبق أن اطلعتم عليه لكفيتم مشقة الرد، وشملتنا رأفتكم، وكان لنقدكم منحىً آخر.

كلام محمد إعجاز محمد، نص حوار صحيفة كاركزاران مع د. سروش

❖ ذكرت بعض الصحف والمواقع على شبكة الإنترنِت أنّ الدكتور سروش أنكر نزول القرآن من قبل الله، ورأى أنه كلام بشري صدع به محمد صلى الله عليه وآله، فهل هذا صحيح؟

ربما أرادوا بذلك مجرد المزاح، أو كانت وراء ذلك دوافع سياسية وشخصية، أسأل الله أن يكونوا قد غفلوا عن حقيقة المعنى الذي أردته، وإلا فإن الذي يدرك الولاية الإلهية العامة، ومعنى قرب الأولياء من الله، ويعلم تجربتهم الاتحادية به، لا يتفوه بمثل هذا الإنكار، إن أولياء الله قد بلغوا من القرب من الله أن فنوا فيه، وأضحى كلامهم عين كلام الله، وأصبح أمرهم ونهيهم وحبهم وبغضهم عين أمر الله ونهيه وحبه وبغضه، لقد كان النبي الأكرم بشراً، وقد أقر نفسه ببشريته {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}، ولكن في الوقت نفسه فإنّ هذا البشر قد اصطبغ بصبغة إلهية، حتى ارتفعت الوسائط بينه وبين الله تعالى، بما فيها جبرائيل×، فكانت جميع أقواله جامعة بين «كلامه الإنساني والوحي الرباني»، دون أن يكون هناك اختلاف بينهما.

أرجو من خلال التأمل في هذهِ الوقفة العرفانية أن تنحل عقدة الإشكال، وينجلي سرّ الكلام.

أين أصبح دور جبرائيل في الوحي؟!

❖ قد يقال: على هذا الأساس ما هو دور جبرائيل عليه السلام في إنزال الوحي؟

يرى العرفاء أن جبرائيل عليه السلام لم يكن أقرب إلى الله تعالى من محمد صلى الله عليه وآله، بل إن جبرائيل تابع للنبي، وقد عجز جبرائيل في ليلة المعراج عن مواصلة المشوار مع النبيصلى الله عليه وآله وخشي من احتراق جناحه إن واصل العروج؟ وإلى هذا المعنى أشار الإمام الخميني بقوله: «إن النبي صلى الله عليه وآله كان هو الذي يُنزل جبرائيل»، فهل يعني هذا أن الله لم ينزل جبرائيل؟!

إن قولنا: القرآن كلام محمد صلى الله عليه وآله بمنزلة قولنا: القرآن معجزة محمد صلى الله عليه وآله تماماً، فكلاهما ينتسب إلى الله وإلى النبي صلى الله عليه وآله بمقدار واحد، والتأكيد على أحدهما لا يعني إنكار الآخر، فكل ما يحدث في العالم إنما هو بعلم الله وإذنه وإرادته، وهذا مما لا يرتاب فيه موحِّد، فكلنا يعلم أنّ التفاحة ثمرة شجرة التفاح، فهل يتعين علينا أن نقول: إنّ التفاح ثمرة شجرة الله حتى نغدو موحِّدين؟ لا يليق بنا أن نلبس هذهِ الأشعرية القديمة مسوحاً تقديسياً معاصراً، بل علينا أن نتكلم وفقاً للقواعد، وأن ندرك معاني الكلام الدقيق، والذي ينطوي على الأسرار، على نحو حسن، فالقرآن ثمرة الشجرة الطيبة لشخصية محمد صلى الله عليه وآله التي أثمرت بإذن الله: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}، وهذا هو عين نزول الوحي والتصّرف الإلهي.

وهنا أتقدم بنصيحتين للمنصفين – أما غير المنصفين فلست أتقن اللغة التي يتكلمونها – بأن يتجنبوا سوء الظن بأولياء الله، وأن لا يحسبونهم بعيدين عن الله، وأن لا ينزلوا أحبّاء الله عن مسند القرب الإلهي (تمَّ نصّ الحوار).

إذاً فكون القرآن محمديّاً (ومحمد صلى الله عليه وآله إنسان من جميع جهاته) أمر معقول ومبرهن، تدعمه الكثرة الكاثرة من العرفاء والمفكرين المسلمين، ويحمل من العمق ما يفوق عمق جبرائيلية القرآن، بمئات المرات ـ وهذا لا ينافي جبرائيلية القرآن وقوله تعالى صريح في: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} وذلك لأنه كما قال الإمام الخميني، وهو الذي يقوله جميع العرفاء المسلمين: إن النبي الأكرم هو الذي كان ينزل جبرائيل، وفي هذهِ النسبة إلى الله يتحد الداخل والخارج، كما هو الحال بالنسبة إلى الماضي والمستقبل، والفوق والتحت.

وإلى هذا يرجع قولي بعدم الإختلاف بين الظاهر والباطن في ظاهرة الوحي، فالله الذي يعرف الموحدون الصادقون حاضر في وجود النبي وخارجه بنفس النسبة، ولا فرق بين أن نقول بأنّ الله أو جبرائيل يحضر الوحي من الخارج أو في الداخل، فليس الله بعيداً عن النبي، ولا النبي بعيداً عن الله. ولست أدري سبب الغفلة عن قرب الحق من العبد، واندكاك الممكن في الواجب، وسيادة فكرة السلطان والسفير والرعية بدلاً من ذلك، وهو ما تجلى في إيضاحات الشيخ السبحاني !

ملابسات وضع الوحي في السياق الشعري

مرادي هو الاستعانة بظاهرة الشعر الملموسة (والإبداع الفني بشكل عام) لدرك ظاهرة الوحي الغريبة، والتعرف عليها بشكل أفضل، وذلك في مقام التصوير فقط. وقد سبق أن ذهب الغزالي إلى أبعد من ذلك، حيث قال: لكي ندرك ظاهرة الوحي يمكننا الاستعانة بظاهرة الوساوس الشيطانية، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ}.

ينبغي الالتفات إلى أن الشعر ـ بحسب المفهوم المعاصر ـ الذي يعد بمنزلة الفن الخلاق المتسامي يختلف كثيراً عن الشعر بالمفهوم الذي كان يختلج في ذهنية أمثال أبي جهل وأبي سفيان، وإنّ توظيف الفن لتقريب معنى الوحي لا يقلل من شأن القرآن شيئاً، ولا يزيد من شأن أبي لهب خردلة، كما أن العلامة الطباطبائي يعتبر الوحي شعوراً خفياً، وأما أنا فأرى التعبير بالفن الخفي أنسب.

لماذا استحضار مولوي؟!

من دواعي سروري أن أجدكم متفقين معي في أن الاستشهاد بأشعار مولوي استشهاد بتجارب وحكم عارف له باع طويل وراسخ في العرفان الإسلامي، وأن الاستشهاد بشعره لا يعني الاستعانة بالشعر بما هو شعر، هذا مع أن المولوي في ديوانه المثنوي

ناظم، وليس شاعراً، ورجائي من الشيخ السبحاني أن يقرأ هذا السفر الشريف بدقة، وأن لا يكتفي ببعض الكلمات المشهورة عنه، فيكون انتقائياً في أحكامه.

النبي في الوحي بين البشرية والإلهية... بين ثقافة الوصل ونهج القطع

لست أدري لماذا غفل الشيخ السبحاني عن كلّ ما صرحت به بشأن إلهية نفس النبي صلى الله عليه وآله، وفسر البشرية بمعنى النطق عن الهوى؟ فبماذا نسمي هذهِ الغفلة؟

إن النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهو الفاعل والقابل للوحي، بشرٌ مؤيد ومطهر، وكلّ إناء بالذي فيه ينضح، ولا تثمر الشجرة الطيبة إلا ثمراً طيّباً، وإذا تجاوزنا النبي فإن غير المعصومين من الناس، من أمثالكم، وأمثال السيد البروجردي، وابن سينا، وسعدي، وناصر خسرو، وكانت، وديكارت، وبوبر، كانوا مثل النبي صلى الله عليه وآله، ولم يكن ما صدر عنهم من الإنجازات والإبداعات قد صدر بفعل الأهواء؟ فحتى لو فرضنا أن وحي النبي صلى الله عليه وآله كان بشريّاً بالكامل فلا يعني ذلك بالضرورة أن يكون صادراً عن الهوى؛ وذلك لأن هذا الوحي برغم كونه بشرياً فهو إلهيّ في الوقت نفسه، أي أنه أمر من أمور ما وراء الطبيعة، قدّر له أن يتقدّر بأقدار الطبيعة، وهو أمر متعالي قدّر له التنزل، وهو نفسٌ قدّر له أن يخرج من مزمار، وهو إلهي قدر له أن ينبثق من لسان بشر، وهو صادر عن إنسان مفعم بوجود الله.

أسأل الشيخ السبحاني أن يمنحني الحق في أن أصف ميتافيزيقيته بمتافيزيقيّة البعد والفرق، وأن أصف ميتافيزيقيتي بميتافيزيقية القرب والوصال؛ فإنّ التصور الذي يحمله عن الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وآله بمثابة الخطيب واللاقطة (أو مسجل الصوت)، فالخطيب يتكلم، واللاقطة تعمل على نقل صوته، أي إن النبي مثل اللاقطة، ليس سوى أداة وعدّة، وأين ذلك من نزول القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وآله؟! وكأنه يتصور نزول القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وآله، وليس على قلبه، وأما التصوير الذي أحمله عن تلك الرابطة، التي هي «أقرب من حبل الوريد»، فهو رابطة النفس والجسد، أو بعبارة أوضح: رابطة المزارع والشجرة، فالمزارع يدفن البذرة في رحم الثرى، والشجرة تعطي الثمرة، وهذهِ الثمرة مدينة في كل ما تشتمل عليه من اللون والنكهة والطعم والشكل والفيتامينات إلى الشجرة التي أثمرتها، والشجرة مدينة بدورها إلى التربة الصالحة والنور والغذاء والهواء الذي تحصل عليه، وهذا كله إنما يكون بإذن الله، ولا يشك الموحدون في ذلك، بل إن وجود الشجرة هو عين إرادة الله وإذنه، وليس ذلك من قبيل الأمور الاعتبارية بين الناس من إصدار أحدهم أمراً وقيام الآخر بتنفيذه، وأنا أعجب من اعتباركم النظام الإلهي بمنزلة الأنظمة الإدارية والتنفيذية السائدة بيننا نحن البشر.

وبعبارة أوضح: رغم كون الأشياء بأجمعها ذات طبيعة إلهية إلا أن كل ما في الطبيعة طبيعي، وكل ما في البشر بشري، وكل ما في التاريخ تاريخي، ولذلك فإن للنبي في مسألة الوحي دوراً موضوعياً، وليس طريقياً، وهو بشر نزل عليه القرآن وصدر عنه، وقد ورد كلا هذين التعبيرين في القرآن، فكل من قيد (النزول) و (البشرية) حاضر في أعمق معاني الوحي، ومن دون أخذ هاتين الصفتين بعين الاعتبار لن يكون بالإمكان تقديم تفسير منطقي للوحي وبعبارة أوضح: لا نقول: إن الله لا يثمر، وإنما نقول: على الله لكي يثمر أن يخلق شجرة، لتقوم تلك الشجرة بالإثمار، ولا نقول: إن الله لا يتكلم، وإنما نقول: إذا أراد الله التكلم فعليه أن يصدع بالكلام من خلال نبيه، ويعدّ كلام النبي عندها كلام الله.

طبقاً لتصوير الشيخ السبحاني يتمكن الخطيب من قول كل شيء عبر اللاقطة، ابتداء من الشعر إلى الفلسفة والرياضيات، ومن العربية إلى الإنجليزية والصينية، وأما طبقاً لتصويري فإن كل ثمرة لا تنتج من كل شجرة، فشجرة التفاح لا تثمر سوى التفاح، وإنه لمن الأشعرية البحتة أن نقول بصدور كل ثمرة من كل شجرة .

وحتى في تصوير الخطيب واللاقطة فإننا نجد للاقطة دوراً تضطلع به، فتفرض محدوديتها على صوت الخطيب وتتحكم به.

وهكذا يكون المعنى غير المصور من الله، والصورة من محمد، والنفخ من الله، والمزمار من محمد، والماء من الله، والوعاء من محمد، فالله هو الذي صب بحر وجوده في وعاء شخصية باسم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، يغدو بذلك كل شيءٍ محمدياً، فمحمد عربي فكان القرآن عربياً، وقد عاش في الحجاز وبين القبائل العربية التي تقطن الخيام فنجد الجنة تتصف أحياناً بهذا الطابع العربي، حيث يقول تعالى في سورة الرحمن: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، وتكتسب بلاغة القرآن تبعاً لأحوال الرسول أفولاً وصعوداً، وعلى هذا المعنى تحمل تبعية الوحي وجبرائيل للنبي، ومدعى أبي نصر الفارابي والخواجة نصير الدين الطوسي من تدخل قوة النبي التخيلية وتأثيرها على الوحي، وعلى حدّ تعبير مولوي: «يزوّد بالتصوير ما يفتقر إلى الصورة».

تتجلى شخصية محمد صلى الله عليه وآله البشرية التاريخية في جميع مواضع القرآن، وإنّ هذه الشخصيّة التي قام الله على تربيتها وإعدادها هي كمال النعمة التي أنعم بها على المسلمين، ومن هنا فإن ما يقوله هذا الولي المؤيد والفاني في ذات الله هو كلام الله، وهل لكلام الله من طريق آخر غير هذا الطريق؟! إذا كان لديكم طريقة أخرى لحل معضلة كلام الله فنرجو إفادتنا بها. وليس يدعمنا هاهنا العرفاءُ فحسب، بل حتى الفلاسفة يشتركون معنا في مواجهة الشيخ السبحاني، ألم يقل الحكماء، وفي مقدمتهم صدر الدين الشيرازي: كل حادث مسبوق بالمادة والمدة؟ وكذلك حادثة الوحي المحمدي إنما

حدثت في ظروف مادية وتاريخية خاصة، وقد كان لتلك الظروف مدخلية تامة في تكوين الوحي، ولعبت دور العلة الصورية والمادية للوحي. ولا بد هنا من الالتفات إلى أن المسألة تفوق اللفظ والمعنى، فالمسألة هي مسألة الصورة وعدمها، واللفظ أحد أنواع الصور.

والخلاصة أنّ ما يأتي به محمدٌ صلى الله عليه وآله هي محدوديته العلمية والوجودية والتاريخية وما إلى ذلك مما لا مفر لمخلوق منها. وهنا نسأل الشيخ السبحاني: لماذا نزل القرآن باللغة العربية؟ لا شك أنه سيجيب بأن الله أراد ذلك لحكمة، وأنا لا أنفي ذلك، ولكنني أقول: إن عربية رسول الإسلام هي ما أراده الله، وقس على ذلك سائر الأمور الأخرى.

توضيح حول تطرق الخطأ إلى القرآن وعلم النبي

المراد من الخطأ هنا ما يعدّ خطأ من وجهة نظر الناس، أي عدم الانسجام مع معطيات العلوم البشرية، فلم يرد في القرآن أن الله ألهم نبيه علم جميع العلوم، ولم يدّع النبي ذلك، ولم يتوقع أحد مثل هذا الشيء وأراد للنبي أن يعلم كل شيء ابتداءً من الإلهيات والروحانيات إلى الطب والرياضيات والموسيقى والفلك.

وخلافاً لما يذهب إليه الشيخ السبحاني فإن قوله تعالى: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} لا يعني أنه علم جميع العلوم، بل هو كما يقول المناطقة: «المهملة في قوة الجزئية»، مضافاً إلى أن النبي يقول: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}

وقد قال ابن خلدون في مقدمته بصراحة: إن أقوال النبي في الطب هي نفس أقوال وآراء الأعراب من سكان البوادي، بل كان يرجع إلى الطبيب إذا لزم الأمر. وقال ابن عربي ــ الذي يعتبر الإمام الخميني قدس سره فتوحاته المكية بمنزلة حديقة غناء في حقل المعارف الإسلامية والعرفان، وأوصى الزعيم الروسي ميخائيل غورباتشوف بقراءته ــ في باب أن الكامل من جميع الجهات لا يعدّ أفضل من الناقص، في الفصّ الشيثي من فصوص الحكم: إن النبي منع أهل بادية من تلقيح النخيل وتأبيرها، فلما خرجت شيصاً تنبه إلى خطأه وقال: أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف منكم بدينكم (وقد سمعت هذهِ الرواية من الشهيد المطهري قبل قراءتها في فصوص الحكم).

ونقل أيضاً رواية أخرى مفادها أن النبي فضل رأي عمر على رأيه في باب أسارى بدر .

وقد صرح القرآن بعدم تعرّف إبراهيم عليهم السلام على الملائكة، وأنه أوجس منهم خيفة .

وقال ابن عربي: إن إبراهيم لم يكن يستطيع تعبير الرؤيا، ولذلك رام التضحية بإسماعيل عليه السلام عن طريق الخطأ في تفسيره رؤياه .

وعليه إذا ذهب شخص إلى أن علم النبي في الرياضيات الطبيعية، وليس العلم الديني والرؤية الملكوتية والعلم بالأسرار الربوبية، مساوٍ لعلم قومه والمعاصرين له لا يكون مخطئاً، أو في الأقل لا يكون في قوله هذا مخالفة لضرورة من ضروريات الدين.

إشكالية انسجام ظواهر القرآن مع العلم البشري، مدخل للتاريخية

أما قضية عدم انسجام ظواهر القرآن مع العلوم البشرية، فأقول: ألم يقل بذلك كل من عمد إلى تأويل ظواهر القرآن بعد أن وجدها مخالفة للعلوم البشرية؟ فليس التأويل في واقعه غير اللجوء إلى علم بشري ورفع اليد عن علم بشري آخر. وقد صرح أستاذكم العلامة محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان بكل ما أوتي من صراحة علمية، في تفسير استراق الشياطين للسمع، وهروبهم من الشهب السماوية (من الآية الأولى إلى الآية العاشرة من سورة الصافات)، أن جميع تفاسير الكتب التفسيرية المتقدمة، والمعتمدة على الهيئة القديمة، وظواهر الآيات والروايات، باطلة، وقد ثبت بطلانها في عصرنا يقيَناً، ولذلك لا بد من البحث عن معنى جديد لتلك الآيات، ثم عمد من خلال الاستفادة من الفلسفة الإسلامية اليونانية ــ التي هي علم بشري آخر ــ إلى تأويلات بعيدة غير مقنعة، وقد صرح هو في هذا التفسير بتشكيكه وعدم قطعه بهذهِ

التأويلات، من خلال استعمال ألفاظ من قبيل «يحتمل»، «والله العالم»، وقال: ربما كان هذا من قبيل الأمثال التي يضربها الله، وأن المراد من السماء عالم الملكوت الذي تسكنه الملائكة، والمراد من الشهب نور الملكوت الذي يدفع الشياطين، أو المراد أن الشياطين يهاجمون الحقائق ليبطلوها، فتصدهم الملائكة بشهب الحقيقة ليدحضوا باطلهم..، وكأن السيد الطباطبائي نسي أنّ هذهِ الشهب إنما تنطلق من سماء هذهِ الدنيا نحو الشياطين، وليست من ناحية الملكوت، قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}.

وهكذا تظهر منعطفات القبض والبسط في التفسير، حيث يسقط المعنى الذي كان بديهياً عند الأقدمين عن بداهته، ويخضع ظاهر الآيات، التي كانت منسجمة مع العلم القديم، ولم يشكك فيها السابقون، للتأويل كي تنسجم مع علم بشري آخر. ولا كلام في هذا القبض والبسط، ولا لوم على المفسر فيه، فهذهِ هي طبيعة ومصير كلّ التفاسير. إنما الكلام في أننا قبل التأويل نذعن منطقياً بعدم الانسجام، ونسعى بعد ذلك، إلى البحث عن حيلة لرفع هذهِ المشكلة، بل يذهب السيد الطالقاني إلى أكثر من ذلك، ويقول في تفسيره «در برتوي أز قرآن»، في تفسير قوله تعالى: {الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} في سورة البقرة صراحة: إن اعتبار الجنون مسبَّب عن مس الجن والشيطان من معتقدات العرب في الجاهلية، وقد جاراهم القرآن في معتقدهم هذا، وهذا رأي ذهب إليه شطر

من المفسرين العرب المعاصرين، وإنه لم يقم بأية محاولة أو مجهود في تأويل هذهِ الآية، ويعترف بالخطأ، ولكنه يرى مصلحة في تعمد القرآن لارتكاب هذا الخطأ، بيد أن هذا الكلام لا هو بديع ولا هو بدعة.

وقد بّين جار الله الزمخشري المعتزلي هذا الرأي في تفسير الكشاف، قبل ثمانية قرون سبق فيها السيد الطالقاني، حيث قال بصراحة: إن هذهِ من المعتقدات الباطلة التي كان يؤمن بها عرب الجاهلية من أن مسّ الجنّ يوجب الصرع، وقد نزل القرآن طبقاً لما يعتقدونه .

وقال الآلوسي في تفسيره روح المعاني: «إن هذا هو مذهب جميع المعتزلة.»

والملفت للانتباه ويستدعي التأمل أنّ التفسير والكلام الإسلامي السيال ابتلي في العصر الراهن بالجمود، حتى أخذ البعض يستغرب آراء العلماء المسلمين وينسبها إلى المستشرقين، والذي يلفت الانتباه ويدعو إلى التأمل أكثر أنه لم يكفر أحد من المتقدمين علماء المعتزلة، وغاية ما نسبه إليهم كبار الأشاعرة أن قالوا: إن الذي ينكر مسّ الجن هو مجنون ممسوس من قبل الجن.

وأوضح من ذلك قضية السماوات السبع، حيث أجمع قدماء المفسرين على تطبيقها على نظريات هيئة بطليموس، ولم يكن هناك حينها ما يمنعهم من ذلك، حيث تدل كل الظواهر على صحّة ذلك التطبيق، ولم ينجلِ الأمر إلا في القرن التاسع عشر والقرن

العشرين، حيث نزع المفسرون الجدد من العرب وغيرهم إلى البحث عن تفسيرٍ آخر للآيات في ضوء المعلومات الجديدة، ليقدموا معاني جديدة أخرى هي بدورها مشكوكة أيضاً.

لا مفرّ من الإذعان بعدم انسجام الظواهر القرآنية مع العلم، والذي يكون شديداً أحياناً، وهنا تتجلى طرق وأساليب متنوعة لدفع هذا الإشكال والتخلص منه؛ فإما أن نلجأ إلى التأويلات البعيدة، كما هو منهج الطباطبائي؛ أو نحملها على المماشاة لما عليه لغة العرب وثقافتها، كما هو منهج المعتزلة والطالقاني؛ أو نعتبر لغة الدين والعلم لغتان مختلفتان، ونعتبر لغة الدين لغة تصويرية واستعارية، كما هو منهج المتكلمين النصارى؛ أو نذهب ـ كبعض المعاصرين ـ إلى عدم احتمال معطيات الوحي للصدق والكذب؛ أو نذهب إلى كون المعنى من الله واللفظ من النبي، كما هو منهج ولي الله الدهلوي.

أياً كان الجواب فإنني أرى هذا النوع من الآيات من جنس الأعراض، التي ذكرتُها مفصلاً في كتاب بسط التجربة النبوية، والتي لا تؤثر في رسالة النبي ونداء الدين، ولذلك أتجاوزها بالتي هي أحسن، وفي الأقل أميل إلى أسلوب المعتزلة للخلاص من محاولات المتكلفين .

وأما تاريخية القرآن فمعناها واضح، وقد ذكرته في كتاب (بسط التجربة النبوية) منها: الإجابة عن أسئلة عوام العصر، والتعرض لشؤون النبي الأسرية والتي كان بالإمكان عدم حدوثها، وبالتالي عدم تطرق القرآن لذكرها.

لا أتصور أن بإمكانكم من خلال الإصرار في العصر الحاضر على كون السماوات سبعاً، أو كون الصرع والجنون مسبباً عن مسّ الجن، أو أن الشهب السماوية تستهدف المتطفلين من الشياطين كي لا يستمعوا إلى إسرار الملائكة، أن تستميلوا شخصاً نحو الإسلام، أو تثبتوا أفضلية الإسلام على الديانة البوذية مثلاً؛ فإنّ روعة الوحي المحمدي لا تكمن في تلك المتشابهات في سورة مثل الحديد؛ لمجرد تسميتها بالحديد، مع أن نسيجها من الحرير، أو على حدّ قول الغزالي (جوهرة القرآن)، حيث صاغ الله القيامة والإيمان والنفاق والجهاد والخشوع والزهد وما إلى ذلك بصلابة ورحمة، يكفي فيها دعوة واحدة، يقول فيها سبحانه وتعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} لتطرب الأرواح، وتضيء مسارج الإيمان في مكامن القلوب.

وأما بالنسبة إلى ما ذكرتموه من قولكم: «إن القرآن الذي ذهبتم إلى بشريته وإمكان الخطأ عليه ما الحاجة إلى ترجمته وتفسيره بلغة العصر...، وإنكم بذهابكم إلى إمكان خطأ القرآن وكونه بشرياً تكونون قد خرجتم عن ربقة المجتمع الإسلامي، فلا نجد حاجة إلى

نصائحكم؛ لأن الذي يستطيع إسداء النصح هو من كان واحداً ضمن أفراد هذهِ الجماعة..»

فقد أوضحت المراد من قبول الخطأ وكونه بشرياً.

كلمات أخيرة مع الشيخ السبحاني

وهنا أتقدم إليكم بما يلي:

أولاً: أقول لكم ما قاله الله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}

ثانياً: إنني لم أقل شيئاً غير ما قاله العلامة الطباطبائي والطالقاني والزمخشري.

ثالثاً: عليكم بتقديم معايير متقنة ومتينة لحل هذهِ المشكلة بغية الخروج من مأزق تعارض العلم والقرآن، وقد تحدثت عن التجربة الحضارية، ولم أذكر شيئاً عن اللغة العصرية على التفصيل الذي جاء في مقال (الذاتي والعرضي في الأديان) في كتاب (بسط التجربة النبوية).

رابعاً: لا تدعوا المحققين إلى التقليد، ولا تخوِّفوا الذين تنكَّبوا الطريق بتأمل وتحقيق من سوء العاقبة وزوال السعادة، فإنما هي في التحقيق الصادق، حتى لو أدت بزعمكم إلى نتائج خاطئة، وليست هي في التقليد الأعمى.

وأنا، وإن كنت لا أشك في إخلاصكم في النصح وأقدر حرصكم، لا أروم ترك التحقيق والتعمق، وسأواصل التمسك بحبل العقل والتفكير المتين، فإن شذى عطر هذا المسك يشدّني إلى هذا التمسك، ويقيدني إلى هذهِ الباقة من الرياحين حتى لا أجد في نفسي القدرة على مبارحتها.

أرى محمداً رسول الله عاشقاً مبدعاً، منحته تجربته الروحانية سعة في الصدر، وبصيرة في القلب، حتى امتلأت روحه بوجود الله، وحتى أضحى كل ما يراه أو يقوله إلهياً، ويرى الإنسان والعالم ـ سواء بسبع سماواتٍ كان أم بسبعين، وسواء أكانت العناصر أربعة أم مئة وأربعة ـ مخلوقاً لله، متعلقاً به، وصائراً إليه، وهو سعيد بهذا الاكتشاف النبوي، ويسعى إلى إشراك الآخرين في هذهِ السعادة، ويجتذبهم إليه، ويغطي على سيئاتهم، ويغسل أدرانهم ببحر طهره.

إنني أعشق هذا البشر البشير، وإذا كنت أستضوع شذى عطر الكلام الإلهي من هذهِ التربة فلأجل مجاورتها لتلك الريحانة .

اكتفي بهذا المقدار خشية الإطالة، وأترك باب هذهِ المناظرة مفتوحاً، وأضيف: إنني حالياً منهمك بالتدريس في إحدى الجامعات الأمريكية، وأقوم هنا بما حرمت من القيام به في إيران، ببركة سعة صدر المسؤولين فيها، وأرغب عند العودة إلى إيران أن أدعوكم ــ عند الإمكان وتوفير مناخ آمن وهادئ ـ إلى المشاركة في حوار مباشر في هذا الشأن؛ بغية

إحقاق الحق ودحض الباطل، وبما أنني أرى أن الغاية القصوى من التدين، والهدف من كلّ هذهِ الدقة العرفانية والكلامية، هي بناء مجتمع خلاّق ومتخلق وعادل، فإن مسؤوليتي الوجدانية تدعوني إلى مطالبة سماحتكم بالوقوف بوجه الانحرافات العلمية والأخلاقية، وأن لا تقروا على جفاء أو ظلم يتعرض له مظلوم، وأن تتمسكوا بعهد الله الذي قطعه على العلماء، وأن لا تركنوا للظالمين، وأن تكونوا في ذلك أسوة للآخرين، والله المستعان.

عبد الكريم سروش

واشنطن / اسفند/ 1386هـ ش (2008م)

❖ جواب الشيخ جعفر السبحاني على ردّ الدكتور سروش: حريم الوحي وحرمة النبي

سماحة العالم والدكتور المحترم السيد سروش، بعد التحية والسلام.

وصلتني رسالتكم والمقابلة الثانية التي نشرت في بعض الصحف، وللحيلولة دون الوقوع في الخطأ في الحكم عمدت إلى قراءتها مرتين بدقة، فوجدت من الضروري التذكير بسلسلة من الأمور، على أمل أن تدققوا وتتدبروا فيها.

لاشك في أنكم عند عودتكم إلى إيران من لندن في مستهل الثورة الإسلامية قد تركتم آثاراً مباركة وبناءة، وقد حظي كتابكم «نهاد نا آرام» ـ الذي بينتم فيه الحركة الجوهرية بأروع أسلوب ـ بقيمة عالية. وكذلك كتابكم الآخر «دانش وأرزش»، حيث أثار عاصفة بين عشاق المسائل الفلسفية والكلامية، كما كان لتدريسكم نهج البلاغة أثرٌ ايجابيٌّ من الناحية الأخلاقية، وكنتم على الدوام تفتحون لأنفسكم مكانة في قلوب الراغبين من الشباب وعلماء الدين. وقد ذكر صديق لكم، لا أصرّح باسمه، أنكم حينما كنتم تدرسون في إعدادية العلوي قد اتخذتم دفتراً لتدوين الملاحظات اليومية، وإن صدر عنكم تركاً لما هو أولى سارعتم إلى تدوينه في ذلك الدفتر كي تعملوا على تكفيره لاحقاً، وهكذا كنتم تعملون بوصية علماء الأخلاق في ما يتعلق بالمشارطة والمراقبة.

وعليه لابد من البحث عن سبب تحول ذلك القرب وتلك المنزلة بعد مدة، وانحدارها في قوس النزول. إن إقبال جموع الشباب يوماً نحوكم وتفرق الأصدقاء والأحبة عنكم في يوم آخر ظاهرتان لا يمكن حدوثهما دون سبب أو علة.

لماذا وقعت القطيعة بين سروش وأصدقائه القدامى؟!

1 ــ إن أصدقاءكم إنما بدأوا بالابتعاد عنكم شيئاً فشيئاً حين صدعتم بمسألة القبض والبسط في الشريعة، وطبعتم في ذلك كتاباً يشتمل على مئات الصفحات، مع أنني سبق وأن قلت لكم بأن هذهِ النظرية تتنافى مع الخاتمية في النبوة؛ وذلك أن الشريعة إذا كانت ثابتة والأفهام متغيرة لم يستقر حجر فوق حجر، ولما بقيت في الإسلام حقيقة يقينية، وأضحت جميع معطيات القرآن والسنة والعقل في مهب الريح، وعرضة للتغيرات عبر الأزمنة، وقد ذكرت ذلك في اجتماع مطوّل في منزل السيد فاضل الميبدي، وبحضور صديقكم العزيز السيد رُخ صفت، وسألتكم إعادة النظر في هذهِ المسألة.

2 ــ إنّ عرض مسألة السبل المستقيمة، في قبال القرآن الكريم الذي لا يرى سوى صراط واحد، حيث قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153]، عملت بدورها على توسيع الهوّة، وأبعدت جمهوركم عنكم.

3 ـــ وتعرضتم في يومٍ ما إلى مسألة الحسن والقبح العقليين واتخذتم موقفاً أشعرياً، حيث قلتم: يجب فهم الحسن والقبح من خلال الشرع دون العقل، ويكفينا في ذلك ما أقر القرآن أو السنة المتواترة حسنه أو قبحه، ولا حاجة لنا بعدها لتحسين العقل وتقبيحه.

وقد ألقيتُ في مؤتمر الفلسفة والحكمة ثلاث محاضرات حول الحسن والقبح العقليين، وقلت: إننا لو أنكرنا الحسن والقبح العقليين بشكل كامل فلن يكون بإمكاننا إثبات الحسن والقبح الشرعيين، لأن إحدى الاحتمالات هي أن يكون ما ورد في القرآن مخالف للواقع، ولا يمكن دفع هذا الاحتمال من القرآن نفسه للزوم محذور الدور والمصادرة، ومن هنا لابد من اللجوء إلى الحسن والقبح العقليين، فنقول: إن صدور الكذب من الله القادر الحكيم قبيح عقلاً، وعليه فكل ما قاله صحيح، وأذكر حينها أنكم أذعنتم بذلك.

4 ـــ وطرحت الخاتمية، ومرجعية الأئمة المعصومين عليهم السلام العلمية، وذهبتم إلى أن مرجعيتهم العلمية تنافي أصل الخاتمية، وقد أرسلت نقداً إليكم في هذا الشأن، وحتى الآن لم أحصل على ردّ منكم، وهذا كان من أسباب الفرقة أيضاً .

5 ـــ وها أنتم قد طرحتم مؤخراً مسألة تفسير الوحي على النحو الذي سيأتي، فزدتم في الطنبور نغمة، كما يقول المثل .

6 ــ إن من أسباب الفرقة والابتعاد عنكم هو طرحكم للأفكار ذات الوجهين، والتي يفهم منها الموافق والمخالف أموراً مختلفة، ولو فرضنا صحة بعض النظريات التي صدعتم بها، وهي غير صحيحة عندنا، فهي مصداق لقوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد:13] .

ونحن نعيش في عصر تكالبت فيه جميع عوامل الضلال واستهدفت إيمان الشباب من خلال الأقمار الصناعية والأفلام والإذاعات والأفكار المختلفة، فالمتوقع منكم في مثل هذهِ الظروف ـ وأنتم المتخرجون من إعدادية العلوي والتلميذ البارز الذي درس على يد الشهيد المطهري ـ اجتناب طرح الأفكار ذات الوجهين، التي تزعزع العقائد، وإذا كنتم لا تزالون تحتفظون بذلك الدفتر الذي كنتم تحملونه في أيام الشباب فاكتبوا ترك الأولويات هذهِ في هامشه .

فمثلاً: إذا كنا نقول: إن القرآن كتاب محمد صلى الله عليه وآله فالمراد هو أن القرآن كتاب الله الذي أُنزل على محمد صلى الله عليه وآله، بيد أنكم تقولون هذا الكلام، ثم تردفونه بما يخالف المراد المتقدم، حيث تقول: إن النبي صلى الله عليه وآله كان له دور محوري في إبداع القرآن، أو إن حالات النبي من السرور والحزن تركت آثارها في كتابه، أو إن

بعض آيات القرآن تفتقر إلى الفصاحة والبلاغة العالية، ويعود ذلك إلى حالات الشجرة التي جُنيت ثمارها!

فهل يساعد هذا الكلام مهما قمنا بتوجيهه وتبريره على تعزيز إيمان الشباب؛ أو أنه يزعزعه؟

وبرغم ذلك تذكرون هذهِ المسائل على عواهنها، ومن دون دعمها بدليل، وتتوقعون من أصدقائكم نفس الترحيب والانبهار السابق.

ردّ سروش، استعراض وملاحظات

لنتجاوز هذهِ التنويهات المخلصة، ونرجع إلى المطالب التي أثرتموها في الحوار الثاني، والناظرة إلى نقدنا، لنناقش أهم ما ورد فيها:

1 ـ حقيقة الوحي والدور النبوي

بينت حقيقة الموحي في هذا الحوار في عدد من الجمل نذكر بعضها:

أ ــ أن القرآن ثمرة الشجرة الطيبة لمحمد صلى الله عليه وآله، التي أثمرت بإذن ربها {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}، وهذا هو عين نزول الوحي والتصرف الإلهي.

وقلتم في موضع آخر: إن محمد، الفاعل والقابل للوحي، بشر مؤيد ومطهر، ولذلك فإن الإناء ينضح بما فيه، ولا تثمر شجرته الطيبة سوى ثمرة طيبة.

وقلتم في موضع ثالث: وهذا معنى كون الوحي وجبرائيل تابع لشخصية النبي، وأن قوة خيال النبي تتدخل في مسار الوحي..، وأن الشخصية التاريخية لمحمد صلى الله عليه وآله تتجلى في جميع مواطن القرآن الكريم.

وكذلك قلتم في موضع آخر: إنّ لنبي الإسلام موضوعية في مسار الوحي، ولا يؤخذ على نحو الطريقية، وهو بشر نزل عليه القرآن، وجرى على لسانه، وقد ورد كلا التعبيرين في القرآن. وكلا قيدي (النزول) و(البشرية) متنزلة في أعمق طبقاته، ومن دون الالتفات إلى هاتين الصفتين المهمتين لا يمكننا أن نقدم للوحي تفسيراً يقبله العقل.

وقفة نقديّة

نكتفي بهذا المقدار من كلماتكم، ومن ثمّ نذعن لتحكيم الوحي المحمدي (القرآن) ليقضي بصحة هذا التفسير المقول عقلاً!

إن القرآن يرفض هذهِ النظرية بشدة، فهو لم يرَ موضوعية للنبي أبداً، ولم يعتبر كلامه ثمرة لشجرة النبوّة، بل إن الوحي القرآني يقول: إن كل ما نزل من القرآن هو من زلال الوحي، لم تؤثر فيه أفكار النبي البشرية: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ

الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى:7]، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف:2]، {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران:19]، {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه:114]، {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[الأعراف:203].

فها هو القرآن يؤكد على أن الوحي الإلهي مصون من كل شائبة تشوبه، حتى لو كانت من قبيل الروحيات الطاهرة والمتعالية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، في حين أنكم تصرون على عكس ذلك، قال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء:82].

دققوا في قوله تعالى { مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ }، فلو كان القرآن ثمرة شجرة طيبة فإن الثمرة ستتأثر بالشجرة لا محالة، وعندها ستخرج من حالة الصفاء، ويمتزج الوحي الإلهي بصبغة بشرية.

ربما قرأتم حوار الكاردينال (جان يوس توفان)، المسؤول عن حوار المسلمين في الفاتيكان، حيث قال: لا أجد نفسي مستعداً لإقامة حوار مع المسلمين؛ لأنهم يؤمنون

بأصل لا نؤمن به، فهم يقولون: إن الوحي الإلهي نزل صافياً من المقام الربوبي على قلب رسول الله، ثم جرى على لسانه من دون تحريف .

وإنّ نظريتكم التي تعتبر الوحي الإلهي ثمرة الشجرة الطيبة لوجود النبي، وإن كان الزراع لهذِهِ الشجرة هو الله، تؤدي بالوحي في النهاية إلى فقدان حالته الصافية، واتخاذه صبغة بشرية.

ألا يعتبر كلامكم هذا شبيهاً بكلام ذلك الكاردينال؟؛ حيث قلتم: إن أبسط تصور لذلك هو المزارع والشجرة، فالمزارع يضع البذرة في التربة، والشجرة تعطي الثمرة، وإن الثمرة مدينة للشجرة في كل ما تحتويه من اللون والعطر والشكل إلى الفيتامينات والأملاح، والشجرة بدورها تتغذى من تربة خاصة ونور وغذاء وهواء خاص .

وإذا كان الوحي الإلهي ثمرة الشجرة الطيبة للوجود المحمدي، وكان لشخصيته حالة الفاعل والقابل، فما معنى التأكيد على عدم الاستعجال في حفظ الوحي في قوله تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة 16ـ19].

فإذا كانت المعاني من الله والكلمات من النبي فما معنى هذا النهي عن العجلة في القراءة، والأمر باتباع جبرائيل في التلاوة؟ إن إمعان النظر في هذِهِ الآيات يثبت أن الوحي ــ بما

يشتمل عليه من المفاهيم والألفاظ ـ الذي يراه الحكماء الإلهيون نوعاً من التنزل من الغيب إلى الشهود قد نزل على قلب رسول الله، وجرى على لسانه، ولم يكن لأيّ شخص تأثير في فاعلية القرآن.

وعليه هل يصح القول بأن النبي كان له دور فاعلي في الوحي، وأن له موضوعية؟!

إن هذا النوع من النظريات، وإن تمّ إبداؤه بنية صادقة، يقدم ذريعة للذين ينتقصون من شأن الوحي، ليضفوا عليه بالتدريج صبغة بشرية، ومن ثمّ يطرحون آراءهم إلى جانب الوحي الإلهي، والانتقاص من منزلته .

إنكم تعتبرون التجارب الدينية للعرفاء متممة ومكملة لتجارب الأنبياء الدينية، وبذلك ترفعون الحواجز بين الوحي النبوي ووحي العرفاء، وذكرتم في كتاب (التجربة الدينية) أنّه لما كان الوحي تجربة دينية، والتجربة الدينية قد تحدث لغير الأنبياء، فإن هذهِ التجارب الأخرى ستعمل على إغناء الدين، وعلى مرّ العصور سيتسع الدين، ويأخذ بالتمدد، وعليه تكون التجارب الدينية للعرفاء متممة للتجارب الدينية للأنبياء، ويغدو دين الله أكثر نضجاً، ويحصل هذا الكمال في المعرفة الدينية، بل في الدين والشريعة نفسها[1].

---

(1) التجربة النبوية، ص 28.

وعليه فإن الدين الإسلامي بأصوله وفروعه قد تكامل عبر أربعة عشر قرناً نتيجة لامتزاج التجارب النبوية وتجارب العرفاء، أفهل يصحّ هذا الكلام؟! ومع كل احترامنا للعرفان والعرفاء فإننا نعتبر شطحات بعضهم على طرف النقيض من التوحيد القرآني، فهناك من العرفاء من يرى عالم الإمكان عين الله؛ إذ يقول: «الحمد لله خلق الأشياء وهو عينها»، أو حيث يعتبر مولوي الواجب والممكن شيئاً واحداً قبل البسط، ثم حصل الانفصال بعد ذلك.

لا أرغب في الخوض في هذهِ الموارد، وإلا فإن التضاد بين التجربة النبوية ــ على حدّ تعبيركم ــ وتجربة العرفاء في بعض الأحيان أكبر من أن تسعها هذهِ الرسالة.

2 ـ بشرية النبيّ

لقد أكد هذا الحوار ــ حتى في عنوانه ــ على بشرية النبيصلى الله عليه وآله، الأمر الذي يثير دهشتنا، فهل هناك من ينكر كون النبيصلى الله عليه وآله بشراً؟! وقد قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

فهذهِ الآية تثبت ناحيتين للنبي صلى الله عليه وآله: 1 ــ إنه بشر كسائر البشر؛ 2 ــ إنه يوحى إليه.

والناحية الأولى يشترك فيها النبي مع غيره من أفراد الإنسان، ويمكن دراسة هذهِ الناحية من خلال الأسس المادية.

والناحية الثانية هي موضوع الوحي والجانب الغيبي، والذي لا يخضع للتقدير أو الدراسة بواسطة الأدوات المادية، فهو من مقولة الغيب التي لا يتسنى للإنسان إدراكها، وعليه الإيمان بها كما هي، قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}[البقرة:3].

يطرح القرآن مسائل على أنها من الغيب والشهادة، وهي وإن كانت بالنسبة إلى الله لا تخرج عن الشهود والشهادة، ولكنها بالنسبة لنا وللمحدوديات المفروضة علينا تنقسم إلى شهود وغيبة، فهناك من الحقائق ما يندرج تحت الغيب، ولا يمكن لعلمنا أن يدركه أو يناله، من قبيل: عالم البرزخ، والقيامة، والنبوة والوحي، مما يجب معرفته من خلال الصفات والآثار، دون الفصل والجنس أو بيان الكنه.

3ـ الخطيب واللاقطة

لقد شبهتم اعتقاد المسلمين بالوحي، الذي يرونه صافياً غير مشوب بروحيات البشر، بالخطيب واللاقطة، حيث قلتم: إن الصورة التي تحملونها عن محمد تشبه الخطيب

واللاقطة أو مسجلة الصوت، فالخطيب يتكلم واللاقطة تنقل كلامه، أي أن النبي كاللاقطة، فهو محض أداة .

فنقول: حاشا أن نعتبر المقام الربوبي والرسالي بمنزلة الخطيب واللاقطة، بل نعتقد أن الله تعالى مرْسِلٌ، وأن النبي صلى الله عليه وآله رسول، وإن بين هذهِ الرسالة واللاقطة بون شاسع لا يمكن معه تشبيه أحدهما بالآخر، حيث إن هذا الرسول ينبغي أن يطوي مدارج كمالية ومعنوية وروحية يحظى معها، مضافاً إلى شعوره المادي، بأذن برزخية تمكنه من سماع صوت جبرائيل، وعين برزخية يستطيع من خلالها النظر إلى صورة الملك، وأن يبلغ من الناحية الروحية مرتبة يشهد معها ـ رغم ارتباطه بعالم المادة ـ عالم الغيب دون خوف أو وجل، ويتلقى الوحي كاملاً دون أن يضيف عليه مقدار خردلة، ويبلغه إلى أصحابه، فهل هذا المنصب الرفيع والحساس مشابه لمهمة اللاقطة؟!

التلقي النبوي وانتظار الوحي

من الأدلة الواضحة على أن مسألة الوحي لم تكن ثمرة وجود النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يترقب الوحي، وقد استهزأ اليهود بالمسلمين وسخروا منهم بسبب توجههم إلى بيت المقدس، وهي قبلة اليهود في صلاتهم، ومع ذلك مكث النبي مدة ينتظر أمر السماء في ذلك، وأخذ لفترة طويلة يرمق الأفق الأعلى، ويقلب طرفه في السماء، قال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [البقرة: 144].

وقد نقلتم عن أحد العرفاء الكبار أن النبي كان يُنزِل جبرائيل، ونحن قد درسنا على يد هذا العارف الكبير أكثر من أربع عشرة سنة، وعملنا على نشر وطبع أفكاره العلمية، ولم أسمع بأنه قال مثل هذا الكلام، وعلى فرض قوله فلابد أن يكون في سياق يوضح مراده، وإلا فإن هذا العارف السالك، الذي أحدث هذه الثورة العظمى في العالم الإسلامي، لا يتحدث بكلام مخالف للقرآن، وقد قال تعالى عن الملائكة وأمر نزولها: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم:64].

وربما كان مراد هذا العارف الكبير أن جبرائيل^ كان ينزل ويتشرف بالحضور بين يدي النبي استجابة لدعائه.

وفي العام الهجري الثامن حصل لقاء بين مشركي قريش ويهود خيبر، ولما كان اليهود على علم بالشرائع السابقة فقد سألهم المشركون عن صدق النبي محمد في دعوته، فقال اليهود: اسألوه عن ثلاثة أمور، فإن أجاب عنها فهو نبي، وكانت الأسئلة الثلاثة تتعلق بأمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلما سئل النبيصلى الله عليه وآله عن ذلك استمهلهم، وأخذ ينتظر الوحي ليطلعه على الحقائق، ولم يعمد من فوره إلى قطف

ثمرة من شجرة وجوده، وقد نزل الوحي الإلهي في هذا الشأن على النحو الآتي: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا }[الكهف: 83].

وقال بشأن السؤال الثالث: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }[الإسراء: 85].

أرى أن هذهِ الآيات التي تشهد بأجمعها على صحة نظرية عموم المفسرين كافية لإثبات مرادنا، ولذلك ننتقل إلى موضوع آخر.

4ـ هل محمد نبي وليس بعالم؟!

لقد ذهبتم في كلا الحوارين ـ تصريحاً وتلويحاً ـ إلى كون الرسول صلى الله عليه وآله نبياً، وليس عالماً.

وطبعاً فإن هذا من نوع الكلام الذي يحمل وجهين أيضاً، فعبارة (نبي) تفيد رفع المقام والمنزلة، وعبارة (ليس عالماً) تنفي إحاطته بالعلوم الإنسانية، وكأنكم لا ترون في ذلك منقصة!! وهنا نقول: يتفق الجميع على نفي العلم عنه إذا كان بمعنى العلم الذي يحصل عليه الناس الاعتياديون، ولا يكون وليد فكره.

يطالعنا القرآن بأن الله قد علّم آدم الأسماء كلها، ولاشك في أن هذهِ الأسماء لا تعني الألفاظ والعبارات، وإنما المراد منها حقائق الأشياء، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 31].
وإذا دققتم في الضمائر الواردة في {عَرَضَهُمْ} و{ بِأَسْمَاء هَؤُلاء} لوجدتم أنها تحكي عن أسرار تمّ عرضها على آدم، فتوصلّ من خلالها إلى حقائق الأشياء وأسرار الخلق، وعليه هل يصح أن نقول: إن خاتم الأنبياء وأشرف الرسل وأفضلهم لم يكن يعلم أبسط العلوم وحتى ما كان منها شائعاً في عصره؟

ثم نقلتم حديثاً من (فصّ الشيء) من فصوص الحكم بهذا المضمون: إن النبي صلى الله عليه وآله منع الأعراب من تأبير النخل، فلما خرج ثمرها شيصاً أدرك خطأه، فقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم، وأنا أعلم منكم بدينكم».

وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم، وقد قام المحققون بنقده، وقد ناقشته في كتاب (الحديث النبوي بين الرواية والدراية)، وكأنكم لم تطلعوا عليه، فهل ينسجم مضمون هذا الحديث مع سيرة النبي صلى الله عليه وآله؟ فلو فرضنا جدلاً أن محمد صلى الله عليه وآله لم يكن نبياً، ولا عالماً، ولكن هل يعقل لشخص عاش في شبة الجزيرة العربية، وعماد مائدة الناس فيها هو التمر وثمار النخيل، وقد جرت عادة الزرّاع على تأبير النخل، حتى كانت ولا تزال من البديهيات عندهم، فهل يعقل جهل النبي صلى الله عليه وآله بما كان أبسط العرب يعرفه، إن هذا شبيه بما لو نسبنا إلى سكان الأسكيمو الجهل بمعنى الثلج.

قال الإمام علي عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني»، ولا شك في أن كلامه هذا مطلق، ولا يختص بعالم الغيب، فهل يعقل أن يكون علم أمير المؤمنين أوسع وأكثر من علم أستاذه ومن قام على إعداده وتربيته، حتى قال صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، ما لكم كيف تحكمون؟

5 ـ إشكالية الفعل بين العلم الغيبي للنبي والمعرفة الدنيوية الشهودية

إن كلامكم حول التكامل الروحي للنبي صلى الله عليه وآله بالنسبة إلى العوالم الغيبية، إذا لم يكن مبالغاً فيه، فهو في حدّ إثبات الكمال، فالنبي يبلغ مرحلة لا يدانيه فيها حتى جبرائيل نفسه، ويبلغ من القرب مقداراً لا يمكن تصوره، فكيف يمكن لمثل هذا النبي أن يتكامل في أمور الغيب على هذا النحو، إلا أنه عندما يتعلق الأمر بعالم الشهود وأدنى المستويات في العلوم الطبيعية والفلكية إذا هو يجهلها، ولا يرقى حتى إلى مستوى الجاهلي في علمها.

إن هذا التكامل ذو البعد الواحد من قبيل الطفل الذي يتكامل قلبه دون عقله وسائر أعضائه الأخرى، فلو صحّ أن النبي كان بمستوى الجاهلي في علمه فماذا يعني مضمون الآيات الآتية؟ وهل كان العرب في الجاهلية يدركون معانيها؟

1 ـ {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. فهل كان الجاهلي يعلم بقانون الزوجية الذي يحكم عالم الطبيعة وجميع ذرات الكون؟

2 ـ { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} وهذه الآية تتحدث عن حركة الجبال في هذهِ الدنيا، وليس في يوم القيامة؛ بدليل قوله تعالى: { صُنْعَ اللَّهِ }، ومما لاشك فيه أن يوم القيامة وعالم الآخرة ليس عالم صنع، وهو اليوم الذي تتحطم فيه الجبال، وتكون كالعهن المنفوش، وربما تحدثتم حول هذهِ الآية في كتابكم (نهاد نا آرام).

3 ـ {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ}، فهل كان الجاهلي يعلم بتعدد المشارق والمغارب؟!

4 ـ {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}، فهل كان العربي في العصر الجاهلي مدركاً لهذا النوع من الخلق؟

إن هذهِ الرسالة تضيق عن ذكر الإعجاز العلمي للقرآن، وأتصور أن معلوماتك السابقة وافية وكافية في هذا الموضوع، ومع ذلك أنصحكم ـ في الأقل ـ بمطالعة كتاب (باد وباران في القرآن) لمؤلفه المهندس مهدي بازرگان، لتدركوا كيف توصل إلى إثبات الإعجاز العلمي للقرآن من خلال هاتين الظاهرتين.

6 –قاعدة: ما من حادث إلا وهو مسبوق بمادة ومدة

أشار الأخ العزيز في تلك المقابلة إلى القاعدة الفلسفية القائلة: «إن كل حادث مسبوق بالمادة والمدة»، وبما أن الوحي حادث فهو غير مستثنى من هذه القاعدة، ولذلك لا يمكن عد الوحي مجرداً عن المادة والمدة، وهذا الكلام بعيد من مؤلف كتاب (نهاد نا آرام)؛ لأن هذه القاعدة بشهادة البرهان والدليل وكلمات الحكماء من المسلمين، مثل: صدر المتألهين، والمحقق السبزواري، وغيرهما، تتعلق بالحادث المادي، ولا ربط لها بالمجردات، خاصة ما كان منها من مقولة العلم والمعرفة، بل وما كان أسمى من هذه الأمور، كالوحي الإلهي.

7 –معضلة تعارض القرآن والعلوم البشرية

الأمر الآخر الذي ذكرته في المقابلة، وبحثته في كتاب «التجربة النبوية» مسألة عدم الإنسجام بين ظواهر القرآن والعلم البشري.

وقد استحسنت التعبير بظواهر القرآن، وليس القرآن نفسه، وكان الأحسن لو عبرتم بعدم الانسجام بين فهمنا البشري للقرآن والعلم البشري.

أساساً لا يمكن أن يكون هناك أدنى عدم انسجام بين العلم والوحي الذي لا يتطرق إليه الخطأ، فإن بدا هناك تعارضٌ فمردّه إلى واحد من أمرين:

1ـ إن العلوم البشرية علوم تكاملية ومتغيرة، وإنها لم تكن أبداً ثابتة وصحيحة مئة بالمئة، وعليه فإن ما نعده اليوم علماً قد يتكامل غداً ويتغير، وينهار هذا التعارض الظاهري.

2 ـ إن فهمنا للوحي فهم منقوص، وإن هذا يؤدي إلى توهُّم التعارض، فمثلاً: تم في فترة ما طرح نظرية دارون في (أصل الأنواع)، الأمر الذي أربك في حينه البعض، وتصور أنها تتعارض وخلق آدم عليه السلام؛ لأن هذه النظرية ترجع جذر جميع الكائنات الحية إلى كائن أُحادي الخلية، حيث تكامل هذا الكائن وتطوّر إلى أنواع، ولكن لم يمض طويل وقت حتى ثبت بطلان هذه النظرية، لتحل محلها نظرية (الدارونية الحديثة)، ثم تحولت هذه إلى نظرية ثالثة هي نظرية (الطفرة)، وكلها لم تعدُ طور النظرية، حيث لم تثبت علمياً!

والآن نعود إلى تلك الموارد التي وجدتم فيها عدم انسجام مع العلوم الحديثة، وربما هناك قبلكم من ذهب إلى ذلك أيضاً :

أ ـ مسألة السماوات السبع

تكلم المفسرون عن السماوات السبع، حيث قال تعالى: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} ، ولكن ينبغي الالتفات إلى أن القرآن وإن تحدث عن السماوات السبع إلا أن الذي يمكن لنا رؤيته هي سماء الدنيا فقط، وعليه فإن السماوات الست الباقية خارجة عن نطاق رؤية الإنسان

المعاصر، قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ}، ولربما تطور العلم البشري في يوم ما لتتكشف لنا حقيقة هذه السماوات، مع العلم أنّ هذه السماوات في تمدد مستمر ومتواصل، قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}

وعليه فإن عدم توصل العلم الحديث إلى معرفة السماوات الأخرى لا يصلح دليلاً على نفيها.

ب ـ المسّ الشيطاني

إن من المسائل التي يبدو فيها ظاهر القرآن غير منسجم مع العلم الحديث هو أن القرآن يعلل الجنون بمسّ الشيطان، وقد ذكرتم في هذا الشأن: «إن آية الله الطالقاني يذهب إلى أكثر من ذلك، فيقول في كتابه (برتوي أز قرآن)، في معرض تفسيره لهذه الآية {الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}: إن اعتبار الجنون بسبب مس الجن والشيطان من معتقدات عرب الجاهلية، وقد تحدث القرآن بلغتهم، وهذا ما ذهب إليه بعض من المفسرين المعاصرين في العالم العربي.

وجوابه: أولاً: إن الطالقاني ذكر في تفسير هذه الآية ثلاثة احتمالات:

1 ـ مس الجنون والتعرض للصرع وما ينشأ عنه من الاختلالات النفسية.

2 ـ تسلل ميكروب إلى مركز الجهاز العصبي.

3 ـ الوساوس والأوهام والأماني.

والذي يبدو من ظاهر كلام الطالقاني أنه يميل إلى الاحتمال الثالث، بشهادة العبارات التي ذكرها قبل التعرض لهذا الاحتمال، وإليك هذه العبارات: «بما أن أكل الربا انحراف عن المسيرة الإنسانية والطبيعية فان المرابي يصاب بالتخبط الفكري والاضطراب النفسي...، وترسخ عنده نزعة الحقد والشك في الآخرين...، ويظل في جميع الأحوال قلقاً مضطرباً غير مستقر، وتظهر هذه النزعة على سلوكه وكلامه وحركات جسمه وقسمات وجهه ونظرات عينيه...»

ظاهر هذه العبارات يدل على أنه اختار هذا الاحتمال، وعليه لا يصح القول بأن الطالقاني قد فسّر الجنون بما يتناسب ورأي العرب الجاهليين في ما يتعلق بالجنون.

ثانياً: لو سلمنا تدخل الشيطان والجن في مرض الصرع والاضطرابات العصبية والنفسية إلا أن هذا لا يتنافى ونسبتها إلى الأسباب الطبيعية؛ وذلك لأن تأثير الأسباب غير الطبيعية في الحوادث الطبيعية إنما يقع في طولها، وليس في عرضها، كما هو الحال بالنسبة إلى تأثير الإرادة الإلهية في ظهور الحوادث الطبيعية، وهو أمر لا يمكن إنكاره.

إن سماحتكم قد درستم على يد الشهيد مطهري، ومن المعلوم عندكم أن العلم البشري، أي العلم المستند إلى المختبر والتجربة، حقيق بالإثبات دون النفي، فيحق للعلم أن

يقول: إن السبب الكذائي دخيل أو مؤثر في الجنون، ولكن لا يحق له نفي تدخل الأسباب الأخرى، وليس من البعيد أن تكون الأسباب الغيبية دخيلة في بعض حالات الجنون، قال العلامة الطباطبائي: «إن الآية، وان لم تدل على أن كل جنون هو من مسّ الشيطان، لكنها لا تخلو من إشعار بأن من الجنون ما هو بمسّ الشيطان... فالمتبقي من إشعار الآية أن للجن شأناً في بعض الممسوسين إن لم يكن في كلهم[1]»

وإذا تجاوزنا كل هذا الكلام نقول: إن الآية بمجملها غير واضحة الدلالة حتى يقال بعدم انسجامها مع العلم، أو القول بأن الوحي الإلهي قد تحدث طبقاً لثقافة الناس في تلك العصور.

جـ- فكرة رجم الشياطين بالشهب

قلتم في كلامكم: «إن أستاذكم السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان قال بصراحة تامة بالنسبة إلى استراق السمع من قبل الشياطين، وقذفهم بالشهب: إنّ التفسيرات التي قدمها جميع المفسرين القدماء؛ استناداً إلى علم الهيئة القديمة وظواهر الآيات والروايات، باطلة، وقد يثبت اليوم بطلانها على نحو يقيني» .

عجباً! فأيّ إشكال في كلام العلامة هذا؟ فهو لم يزد على القول بعدم صوابية فهم المفسرين في ما يتعلق بهذا الآية؛ إذ لا يمكن التعويل على الفهم البشري بالمطلق.

---

(1) تفسير الميزان 2: 416.

مضافاً إلى أننا قلنا: إن العلم يحق له الإثبات دون النفي، خصوصاً وأن مسألة قذف الشياطين بالشهب من المسائل الغيبية {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى}، وهذا الملأ الأعلى مجرد عن المادة، فيجب أن تكون الشهب المرصودة لمن يستمع لها متناسباً وشأنها، ولذلك قال العلامة من خلال الالتفات إلى هذه الكلمات: «ربما كان المراد من السماء بقرينة "الملأ الأعلى" هو عالم الملكوت الذي تسكنه الملائكة»

وأخيراً، نصائح أبوية

1 ــ ولدي العزيز لقد ذكرت في رسالتك ما ينيف على أربعين بيتًا من أشعار مولوي وغيره، وقد سعيت إلى تطبيق مقاصدك من خلال هذه الأشعار، ولكن ألم يكن من الأجدر بمن تخرج من إعدادية العلوي، وتتلمذ على يد مطهري، أن يرجع بشأن تحقيقه في حقيقة الوحي إلى القرآن نفسه، وأن يستنطق الآيات للوصول إلى حلّ هذه المعضلة؟

2 ــ ذكرت في رسالتي: أنّ هناك أيادي تحاول توظيفكم لغاياتها ومآربها، ومرادي هو أن كلامكم يطرح في وقت شمّر الغرب فيه عن ساعديه للتشهير بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشتمه، وإن مقابلتكم الأولى والثانية قد تزامنت مع نشر الرسوم الكاريكاتورية في الدانمارك، والتي تسخر من نبي الإسلام، ويسعى أحد الممثلين في البرلمان الهولندي إلى عرض فيلم يظهر القرآن قبيحاً في أنظار المشاهدين.

3ــ جاء في المقابلة قولك: «أرغب عند عودتي إلى إيران أن نعقد حواراً مباشراً مع الشيخ السبحاني في أجواء آمنة وهادئة إذا أمكن ذلك»، وقد فرحت لهذا المقترح كثيراً، يؤيد ذلك البحث الذي كان لنا في منزل السيد فاضل ميبدي، والذي كنت أنا الداعي له، كما كانت دعوتكم لتفقد مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام بطلب مني، ولكنني أتجنب المناظرة إذا كان الهدف منها إظهار نفسي، وآمل أن نقيم بحثاً علمياً في المناخ الذي تفضلونه أنتم للوصول إلى الحقائق.

4 ــ ذكرتم في خاتمة رسالتكم: «أرى من واجبي وما يمليه ضميري أن أطلب من سماحة الشيخ [السبحاني] أن لا يسكت أمام الانحرافات العلمية والأخلاقية، وأن لا يقرّ له قرار إذا تعرض مظلوم لظلم ظالم، وأن يبقى وفياً للعهد الذي قطعه الله على العلماء، وأن يكون في ذلك أسوة للآخرين.»

أليس في هذه الكلمات انتهاك لحرمتي، فمتى كنت معاضداً للظالمين والجفاة؟! لقد تجاوزت الثمانين من عمري، ومنذ أبصرت نفسي كنت قرين القلم والكتاب والتدريس والتبليغ، وكنت دائم التذكير بحديث النبيصلى الله عليه وآله: «لن تقدّس أمة لم يؤخذ فيها للمظلوم حقه من الظالم غير متعتع» ولكن عليكم أن تدركوا أن الظلم الذي يتعرض له رسول الله والمسلمين ظلم لم يشهد له التاريخ مثيلاً، فمن جهة تعمد الدول

الغاصبة والظالمة إلى مهاجمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتعاليمه الإنسانية، ومن جهة ثانية تهضم حقوق أتباعه وتصادر حقوقهم بشكل سافر.

فتعالَ نتعاهد على الوقوف إلى جانب المظلوم في هذه المواجهة، وأن نقارع الظلم لننتزع منه حقوق المظلوم، وأن ندافع عن المظلومين بكل فخر واعتزاز.

❖ الببغاء والنحلة: الجواب الثاني للدكتور سروش في ردّه على الشيخ السبحاني

سماحة الأستاذ المحترم آية الله جعفر السبحاني.

بعد التحية والسلام، فقد وصلتني رسالتكم الثانية، وقد كنت قبلها أكبر حسن ظنكم الذي احتوته جميع رسائلكم، وقد زادت رسالتكم الأخيرة من إكباري وإجلالي لكم.

لقد بدأتم الحديث من (القوس النزولي) عن أفكاري وأحوالي في العقدين الأخيرين، أي من حين نشري لكتاب (قبض وبسط تئوريك شريعت) فما بعد. وأنا سعيد بأن أراكم مهتمين بأوضاعي، راصدين أيام سُعدي ونحسي، ولكنني أجهل موقع المرصد. يبدو أن الشاقول والاسطرلاب بيدكم، وبهما تقيسون ارتفاع الشمس، وتحكمون بصعود وأفول الكواكب. ليس مهماً، ولكنْ لو عاد الأمر إليّ لقست الأفكار بمعيار الحجّة وميزان الحقيقة، ومنحت المخاطب حظاً من الاختيار وحقاً في الاجتهاد.

نوّهتم باجتماعات عقدت في طهران وقم احتججتم فيها عليّ حول بعض المسائل، واعتبرتم عدم اقتناعي بحججكم دليلاً على هبوطي. ولست أدري لماذا لا تضعون هامشاً ضيقاً لاحتمال أن يكون الضعف في حجتكم، وليس في معتقدي وصدقي؟ إنني أتذكّر تلك الاجتماعات جيداً، حيث تحدثتم عن حسن الصدق عقلاً وقبح الكذب عقلاً، وقلت لكم حينها: إن المعتزلة يرون أن القبيح عقلاً هو الكذب إذا كان ضاراً، ولا يرون قبح مطلق الكذب حتى وإن لم يكن ضاراً، وقد أقررتم ذلك في حينها، وعندها قلت لكم: إذاً لا مانع عندكم من أن يكذب الله على عباده كذبة تعود بالنفع عليهم (سواء في القرآن أو غيره)، فقلتم: إن ذلك محتمل، ولكنّ نسبته ضئيلة جداً، هل تذكرون ذلك؟

كان ذلك اجتهاداً منكم في باب احتمال صدور الكذب عن الله، وأنا لا ألومكم على اجتهادكم هذا، ولا أطلب منكم التوبة، ولكنني أعجب منكم حين تعزلون شخصاً قضى عمراً في الاجتهاد متواضعاً، مؤثراً التحقيق على التقليد، ولا يخشى قسوة ألسنة الأرثوذوكسية، وينظر إلى الوحي من خلال نقد العقل، الذي هو هبة من الله، وهو على ثقة من أن الشريعة من المنعة بحيث لا تنهار بآراء أمثالي.

وإنكم إذ رصدتم قوس نزول عقيدتي حبذا لو رصدتم أيضاً قوس صعود القسوة من باب الرأفة، وتجنبتم شبهة التواطؤ مع الجفاة، ولم تسهموا بسكوتكم بزيادة شحذ

وصقل سيوف القساة، وأخذتم بنظر الاعتبار المظالم التي تعرضت لها، بل وتعرَّض لها جميع حملة الأقلام، وشجبتم هذه المظالم. هب أن مسألتي هيّنة، فما هو ذنب ذلك المرجع الفذّ، وفريد عصره، الذي تزول الجبال ولا يزول، فما هي جريرته التي استحق من أجلها تلك الصواعق من العذاب، ولماذا أخفيتم وسائر المراجع رؤوسكم في التراب ولم تبدوا أيّ اعتراض؟! إن الظلم الذي لحق بهذا الفقيه من الحصار والحبس والألم، ولا زال يعاني منه، لم يكن للسماوات أن تتحمله. إن تبعة هذا الظلم ستلاحقنا إلى يوم القيامة، وهناك مثله الكثيرون.

متى وأين يشهد هؤلاء الناس حساسية الظلم؟ وكيف يؤمنون ويثقون في أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يؤخذ فيه للمظلوم حقه غير متعتع، كما أشرتم مستشهدين بعبارة نهج البلاغة، ومنذ سنوات وأنا أتعلمها وأجعلها معياراً وملاكاً لإصدار الأحكام .

لماذا يضعف إيمان الشباب بالدين؟ من المسؤول الحقيقي؟

ذكرتم مشفقين أن الشبهات التي أثيرها تضعف إيمان الشباب! ألا تفكرون أن سلوك بعض علماء الدّين ممَّن يؤثرون الراحة، وأقوالهم التي تحارب الفكر، أكثر تقصيراً ومسؤولية في هذا الخصوص؟ أتعلمون أيَّ شيء يقضي على الإيمان؟ إنه نشر الخرافة باسم الدين، والظلم باسم الله، والسكوت أمام الظلم، حيث تشهدون حالياً أن نقد

القيادة في إيران يساوق الانتحار، إنكم تتركون تلابيب هذه السياسية التي تقوّض الإيمان، وتقضي على العدل، وتكسرون جميع الجرار على رأسي؛ بحجة إضعافي لإيمان الشباب. إن شرب الخمور والعربدة، كما يقول حافظ الشيرازي، ليست بأخطر من اتخاذ القرآن مصيدة للتمويه على الناس. وهل يبدي علماؤنا تجاه هذا التمويه نفس الحساسية التي يبدونها تجاه التفسير؟ متى شاهد شبابنا وأين سمعوا كلاماً حسناً، أو سلوكية مناسبة، من علماء الدولة تساعد على تعزيز إيمانهم؟ وماذا شاهدوا من المؤسسة الدينية الروحية غير جسمانيتها كي تسمو أرواحهم؟ هل هناك من مؤشِّر للقول أو السلوك الحسن غير بعث ذوي الأمزجة الباردة إلى المجلس النيابي، وختم حاشية قائمة الفائزين في الانتخابات بختم صاحب الزمان، والترويج للخرافات من على المنابر والإذاعة والتلفزة، والانقضاض على المخالفين، وإثارة الدهماء على العنف، وخنق الأفكار الجديدة، واستتابة المفكِّرين، وبناء مدرسة المعصومية واستهلاك سهم الإمام المعصوم فيها، وإثارة الفتن من حين لآخر على يد هؤلاء العلماء، وهتك حرمة مرجع أو شخص محترم، والإساءة إلى العرفاء وتقويض بيوتهم عليهم، وتحسين الإرهاب والترويج له في صلاة الجمعة؟ إن مؤسستنا الدينية لا تدرك دورها السيّء في إضعاف إيمان الشباب، وتضرب يميناً وشمالاً في البحث عن الجاني والمقصر! ولكي نكون منصفين علينا أن نستثني قلة قليلة من العلماء الزاهدين العفيفين من هذه الجماعة، ولو لم يكن غرضي من

هذه الأفكار الفلسفية الكلامية سوى إقامة العدل ونشر الفضيلة لما أطلت الكلام في انحرافات علماء الدين .

عندما يبرز غافل في قافلة الفقهاء بقم، ويلقي درساً في القتل والإرهاب، بالتزامن مع عرض فيلم (الفتنة) في إثبات عنف المسلمين وإرهاب الإسلام، ويكني ذلك الفقيه بما هو أبلغ من التصريح، قائلاً بأن على المسلمين معرفة ما عليهم فعله تجاه سروش! لماذا لا ينتفض بوجهه أقرانه، ليقولوا له: إذا كان هذا إفتاءً فلماذا تحدد مصداقه؟ وإذا كان حكماً فما هو حقك في إصدار الأحكام مع وجود الولي الفقيه؟ ولماذا لا يأخذون بخناقه؛ بسبب أخذه بخناق الإسلام؛ وبسبب تشويه سمعة المسلمين؛ ومنعه من التحقيق؛ والحثّ على العنف في قبال الأدلة والحجج؟

فماذا تتوقعون من هذه المشاهد المقزِّزة؟ هل يشاهدون انعدام الثقافة، بل تدمير الثقافة عياناً، فيقوى إيمانهم؟ أم يخجلون من كونهم مسلمين؟ لا تنسوا أن القرون الأربعة الأخيرة شهدت الكثير من مؤلَّفات الملحدين والكفرة والماديين التي تبطل التعاليم المسيحية وتسخر منها، إلا أن الذي قصم ظهر الكنيسة لم تكن هذه المؤلَّفات، وإنما مواجهة ومحاربة الكرادلة لأشخاص مثل غاليلو، برغم أنهم لم يقتلوه، بل اقتصر أمرهم على حبسه واحتجازه في بيته، ولا زالت الكنيسة تحمرّ خجلاً من خزيها، ولا يزال

جبينها يرشح عرقاً بسبب استحيائها، ولا أمل لها في يوم مشرق تنعم فيه بجفاف ذلك العرق بحرارة شمسه!

لقد حصلت على إيماني من العرفاء دون الفقهاء، ولذلك لست أخشى هذه الفرقعات على نفسي وإيماني.

وأما أنتم الفقهاء فعليكم بالشباب الذين يأخذون دينهم منكم، ثم ما إن يفتحوا عيونهم حتى يستشعروا رائحة الدم والعنف من أفواه أساتذتهم، فيهتز إيمانهم كغصن رقيق أمام العواصف.

أو نذكر آية الله مكارم الشيرازي، الذي لا يتورع قلمه عن الألفاظ القبيحة، ومع ذلك يطلب مني التوبة، دون أن يدرك أن التوبة إنما تكون من المعصية دون المعرفة، فما ظنك بـ «أنوار الفقاهة»التي تنشر الظلمة، وتعتبر المعارف من جملة المعاصي، وما أسوأ درس هذا الفقيه الذي يحرّم الفكر، ويختم الأفكار بختم الحلال والحرام، ويطالب المحققين بالتوبة والاستغفار!

وإذا غضضنا الطرف عن سكوتكم يا سماحة السبحاني عن هؤلاء الفقهاء فما عسانا نصنع حين نراكم وأنتم تعملون على تكريم التافهين؟!

وقلتم في هفوة تاريخية: إن كلامي قد اقترن بنشر صحيفة دانماركية لرسوم تسخر من النبي، فعليّ القول: إن بحثي حول كلام الباري وكلام محمد عليه السلام قد سبق أن ذكرته قبل عشر سنوات في كتاب «بسط تجربه نبوي»، والمقابلة مع الصحفي الهولندي كانت قبل سنة تقريباً، وقبل إغلاق مجلة (المدرسة)، وعليه يكون الأول قد حدث قبل ثماني سنوات من رسم الكاريكاتور المناوئ للحرية، والثاني بعد ذلك بسنتين. وفي تلك البرهة كتبت شعراً في المناسبة عنونته بـ «لا يمكن التلاعب باسم محمد»، وقد ضمّنته العبارات الآتية:

«إن هذا الاسم هو شرف المسلمين وثروتهم المقدسة، وهو لواء فخر وشعر فكر العالم الإسلامي، ومثال لجميع أرواح الكرام والأطهار في النشأتين. إن اسم أحمد هو اسم لجميع الأنبياء».

وقبل عام ونصف كان لي بحث تفصيلي في نقد كلام البابا بينيدوكتوس السادس عشر حيث قال: «بما أن المسلمين يعتبرون القرآن عين كلام الله لذلك لا يقومون بتفسيره وتأويله». وإن جميع هذه البحوث والكتابات موجودة على موقعي الالكتروني ومع ذلك أيّ موقع يبقى لشبهة التواطؤ مع المعاندين والطاعنين بإسلامنا؟!

فلا تلك الصحيفة التي تتاجر بالولاية، والتي ليس لها من همّ سوى تحريف الحقائق وتسويق العنف، وتتهمني علناً؛ بسبب أفكاري؛ بالعمالة للموساد والسي آي أي، دون

أن تواجه باعتراض منكم، ولا أولئك الذين يطالبونني بالتوبة، ويحرضون المسلمين عليّ بالعمل بتكليفهم، لا أحد منهم يخدم المعرفة والعدالة والخير والحقيقة، ولا يحلون عقد المشاكل بكلماتهم، بل يثبتون من خلالها أنهم غافلون عنها ولا علم لهم بها. وبدلاً من الخوض في البحوث التحقيقية والعقلية يلجأون إلى أسلحة قديمة صدئة، من قبيل: الكبت، وإسكات المجدِّدين، والتهديد بالعقوبات الدنيوية والأخروية، مكرِّرين بذلك أخطاء الأسلاف بعدم اعتبارهم بالتجارب التاريخية للأديان والأقوام السابقين، كالذي يغمض عينيه كي لا يرى الشمس، وفي الوقت نفسه يتمنى زوالها .

سماحة الشيخ السبحاني، أود إعلامكم بأن إخراج الإلهيات الإسلامية من جمودها، والعودة بها إلى ما قبل المناخ الأرثوذوكسي، والاستفادة من العلوم والأبحاث الجديدة، هو شرط بقاء الإسلام في العالم المعاصر. ولا يكون ذلك إلا من خلال التحقيق الحر والواسع، وهذا لا يتناسب والإرهاب والتكفير، وإذا أرادت الحوزات العلمية أن تواكب هذه العملية أو تقودها فعليها أن تحتاط في سلوكياتها وخطاباتها، وإذا لم تستطع زرع الزهور فلا تنثر الأشواك .

وأنا سعيد لاهتمام المراجع والمشايخ العظام بهذا البحث، وعلى رأسهم الشيخ المنتظري، الذي هو بحق فخر المرجعية والمؤسسة الدينية، وأعتبر هذا الاهتمام دليلاً على أهمية

الحوزة وخطورة المسألة، ولكنّ الذي يسوؤني ويحبط الجمهور هي لغة العنف والتكفير، التي ينبغي وضع حدٍّ لها.

وقفة مع النقّاد

ثانياً: النظرية التي يراد لها حل مشكلات (كلام الباري)، وهي نظرية يقبلها العقل، ويمكن الاستدلال عليها والدفاع عنها، وتعيّن سهم شخصية محمد الناسوتية والبشرية ـ والتي أكد عليها القرآن بشدة وغفل عنها الناقدون ـ في مسألة الوحي بلا زيادة أو نقصان، والتي يدعمها جمهور كبير من العرفاء والفلاسفة المسلمين لست أدري لمَ تعتبر مثل هذه النظرية ـ عمداً أو غفلة ـ نفياً لكلام الباري تعالى، ومحاربة للقرآن؟!

إن معرفتي بالقرآن الكريم ـ بحمد الله ـ إذا لم تكن أكثر من معرفتي بالمثنوي فهي ليست بأقل منه، وإن جميع الآيات التي استشهد بها سماحة آية الله السبحاني، وغيره من الناقدين المحترمين، مثل: السادة عبد العلي بازرگان، وحسيني طباطبائي، وأيازي، وآخرين، أحفظها جيداً، ولا توجد عندي أيّة مشكلة في حلها وفهمها، فأيّ محذور بين أن يكون القرآن نازلاً على قلب النبي، وأن جبرائيل هو الذي أنزله، وأنه كلام الله، وأنه مفعم بألفاظ وكلمات {قُلْ}، وأنه كان يحدث للوحي أن يتأخَّر في نزوله، مما يضطر النبي إلى الانتظار، وأن النبي قد نُهيَ عن التعجّل في القرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، وأن النبي لم يكن له الحق في تغييره، وأن كلام الله قد وصل إلى الناس على نحو ما كان

يريده، وأن القرآن معجزة، وأمثال ذلك، وبين أن يكون القرآن بمجموعه نتاج كشف وتجربة لإنسان استثنائي مبعوث من قبل الله ومؤيَّد منه، وأن كلامه قد أُمضي من قبل الله، وأن كشفه كان نتيجة لحظات فذّة ونادرة من التجارب الروحانية المتعالية؟

الجمع بين الإلهية والطبيعية

لست أدري ما هو تفسير الناقدين لظاهرة مثل الموت والمطر، فقد ذكر في القرآن مراراً أن الله هو الذي يتولى قبض الأرواح بنفسه: { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: 42]، أو أن الذي يتولى ذلك هو ملك الموت: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [السجدة: 11]، أو أن الذي يتولى قبض أرواح الناس عدد كبير من الملائكة {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: 61]، أوَلم يرد في بعض الروايات أن ملكاً ينزل مع كل قطرة مطر: «والهابطين مع قطر المطر إذا نزل»؟ ومع ذلك لا توجد هناك منافاة بين موت الناس الطبيعي والمادي، وبين قبض الله للأرواح وقبضها من قبل ملك الموت. أوَليس الله هو الذي يُنزل المطر {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا} [النبأ: 14]؟ فهل التفسير الطبيعي والمادي لظاهرة نزول المطر تسلب الله قدرته وتجرّده عنها؟ ألسنا نقول في ذلك: إن الله مبدأ المبادئ، وانه

في طول العلل الطبيعية، وان جميع الأشياء تقع بإذنه وتدبيره؟ فإذا كان كذلك لماذا يكون البيان الطبيعي والمادي للوحي وكلام الله وإبراز دور النبي فيه قاطعاً لنسبته إلى الله، وسالباً لدور الله فيه؟ ولماذا يُستثنى الوحي من قاعدة العلل والمعلولات، ويتمّ إسناده إلى ما وراء الطبيعة رأساً؟ !

أفكر أحياناً وأقول لنفسي: يبدو أننا عدنا إلى الزمن السحيق الذي كان فيه بعض المتدينين يعتبرون أن نسبة المطر إلى دور الشمس والبحار والرياح منافياً للمشيئة الإلهية، فكانوا ينسبون نزول المطر إلى الله مباشرة، وها نحن بنفس المنطق ننسب نزول وابل الوحي إلى الله مباشرة، دون ربطه بعلله الطبيعية (نفس النبي، ومجتمع عصره، وعلمه، ولغته، وما إلى ذلك)، مستندين في ذلك إلى آيات كريمة تكرر ذكرها في القرآن، من قبيل: {إِنَّآ أَنْزَلْنهُ}، ولا نتدبر في أن هذا الإنزال والإرسال قد استعمل في القرآن بشأن المطر والرياح أيضاً. وهذا ما يمكن استيعابه في عالم مفعم بالألوهية، وترى الله فيه محيطاً بكل شيء، وهذا هو عين الكشف المحمّدي.

والعجيب أنهم في ما يتعلق بكلام الباري تعالى يعتبرون النزول مجازياً، وليس حقيقياً، بمعنى أن المراد ليس هو النزول من مكان أعلى إلى مكان أسفل، كما هو الحال بالنسبة إلى المطر، وإنما يعني النزول من مكانة أرفع إلى مكانة أدنى، أي من عالم الملكوت إلى عالم الملك، ولكنهم يبقون الكلام على حقيقته، ويحملونه على الألفاظ التي تصدر من أفواه

البشر، وفي هذا من الإبهام وعدم الوضوح ما لا يخفى! فلماذا نقف في منتصف الطريق؟ ولماذا لا نذهب إلى مجازية الكلام، ومجازية نزوله مرة واحدة، ليرتفع الإشكال، أو نذهب إلى كون كل منهما حقيقي حتى لا نضيع في هذه المتاهات.

ينبغي بنا أن نترحّم على روح الإمام الفخر الرازي، حيث قال: جاء في القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وهذا ليس فيه معنى غريب يضطرّنا إلى البحث عنه في ما وراء الطبيعة، فما دام المسلمون قد اهتموا بجمع القرآن، وثبته في المصحف كان ذلك هو عين الحفظ الإلهي، وعلى هذا قياس الأمور الأخرى.

ثالثاً: إن ما نقوله من أن القرآن نتاج الكشف النبوي لمحمد بن عبد الله لا يعني عدم صدق هذا الكشف، حتى يكون من حق النبي تغييره، أو أن تنزل عليه الآيات متى شاء ذلك.

ولا يقتصر هذا على النبوة، بل يصح حتى بالنسبة إلى الاكتشافات العلمية والفلسفية والرياضية أيضاً، فإذا كان قانون الجاذبية من اكتشاف إسحاق نيوتن فلا يعني ذلك أن لا يقوم هذا الرجل بجهوده العلمية وتجاربه، أو أن يحقّ له قول كل ما يريد بسبب اكتشافه هذا، أو أن يصوغ تلك النظرية وفقاً لذوقه، وهكذا نقول بالنسبة لنظرية أصالة الوجود الفلسفية، فلا يسع صدر الدين الشيرازي أن يتجاوز البرهان، وأن يضع التعاريف، ويؤسس القواعد، لتناسب رغباته وأهوائه، فهو تابع للدليل، وليس

العكس، وإن كان استدلاله ومعرفته على قدر طاقته، ولا يمكن لأي شخص أن يحمّل نفسه فوق طاقتها: (الحكمة هي العلم... بقدر الطاقة البشرية). وإذا تجاوزنا العلم والفلسفة نجد صدق هذه الحقيقة حتى بالنسبة إلى الشعر، فالشاعر لا يمكنه قول الشعر متى بدا له ذلك، بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، فهو محكوم لوحي الشعر، وليس الشعر طوع أمره .

وقد حدث لمولوي بعد أن أتم الكتاب الأول من المثنوي أن تعسر عليه قول الشعر واستمرت هذه الحالة عامين كاملين، حتى عادت له قريحته الشعرية، وفاضت الحكمة من بين جوانحه.

ولكلمات {قُلْ} الواردة في القرآن حقيقة واضحة، فإن هذا الأسلوب يعتبر من فنون الكلام، حيث يقوم فيه المتكلم بتوجيه الخطاب لنفسه في حين أن مراده من الخطاب غيره، وهناك أمثلة على ذلك في أشعار مولوي الرومي وحافظ الشيرازي .

ولست أدري كيف يعالج آية الله السبحاني قوله تعالى: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: 94]، فهل كان النبي يشك في نبوته؟ إن الأرثوذوكسية الإسلامية ترفض هذا التفكير، أو أنها تحمل الكلام على تأويلات، مثل: أن يكون الكلام في واقعه

متوجَّهاً إلى غير النبي، ويتضح ذلك من خلال آيات أخرى، من قبيل: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} . أجل، يمكن بيان المراد بأنواع كثيرة من أساليب الكلام.

إن الأسلوب الحواري في القرآن، والذي شرحته في كتاب «بسط تجربه نبوي»، يكشف النقاب عن هذه الفنون البلاغية بوضوح، ويكشف عن ذهنية النبي ونفسيته تجاه الناس وحوادث المجتمع، سواء في الموضع الذي يقول فيه {يَسْأَلُونَكَ} أو في غيره، وكأن القرآن حوار متواصل ومتعدد الجوانب بين الله والكون والإنسان والطبيعة والتاريخ الذي كان النبي محمد صلى الله عليه وآله يعيش في وسطه، وفيه إجابات عن تساؤلات وتحديات ذلك العصر، وإن تلك التساؤلات والتحديات هي التي كانت تجعل روحه متعطشة ومتلهفة لكشف الحقائق ليحصل على إجابات من ملك الوحي، ونقلها إلى الناس بلغة يفهمونها، وهذا التلهف نشاهده في مثل قوله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء} [البقرة: 144]. كل ما في الأمر أن تحفز ضمير محمد، وتلاطم بحر وجوده، هو الذي أدّى إلى اكتشاف الوحي .

وكانت هذه المتطلبات كامنة أحياناً وظاهرة في أحيان أخرى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء} [البقرة:144]، كل ما في الأمر أن الفوران والجيشان الحاصل في ضمير محمد هو الذي أدى إلى الكشف والوحي.

بطبيعة الحال كان لمحمد شخصية استثنائية، حيٌّ نبت زهرةً في وسط الصحراء، وكان أمياً فاق في علمه جميع الأمم، وإن ظهور كتاب مثل القرآن من رحم تلك الجاهلية الظلماء يعد في (لغة الدين) معجزة، وهذا ما جعل من النبي وكتابه إنساناً وكتاباً فريداً لا يضارع، فالذي كان معجزة هو شخص محمد، أما القرآن فقد اكتسب إعجازه من إعجاز محمد، وربما لو جاء بهذا الكتاب شخص آخر، مثل: أفلاطون، لما كان معجزة، أما محمد الأمّي فلم يحتمل منه صدور مثل هذا الأمر الخارق للعادة، وليس عبثاً أن قيل في تفسير قوله: {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} أي بسورة من مثل محمد[1]، وليس عبثاً أن ذهب كبار العلماء من المعتزلة والشيعة إلى إمكان الإتيان بمثل القرآن ولكن الله يحول دون ذلك (مذهب الصرفة).

لقد كانت هذه الشخصية البديعة، بما لها من قلب يقظ، وعين واعية، وذهن متوقد، من صنع الله، وأما سائر الأمور الأخرى فهي من صنع هذه الشخصية، وتابعة لكشفه وإبداعه، لقد كان محمد كتاباً سطره الله، وحينما كان محمد يقرأ كتاب وجوده كان يترجم هذا الوجود قرآناً، ومن هنا كان القرآن كلام الله، حيث خلق الله محمداً، وخلق محمد القرآن، فكان القرآن كتاب الله، كما خلق الله النحل، فأنتج النحل العسل، فكان العسل نتاج ذلك الوحي.

---

(1) راجع: تفسير الصافي، والميزان، ومفاتيح الغيب.

أجل، إننا إذا قصرنا النظر على ظاهر الآيات والروايات نجد الله متكلّماً {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، كما أنه يمشي على قدمين: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}، وكذلك يعتريه الغضب {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}، ويجلس على العرش {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، ويعرض له التردد، حيث جاء في الحديث القدسي: «ما ترددت كترددي في قبض روح عبدي المؤمن».

ولكننا إذا نظرنا إلى المعنى لم يرِدْ أيّ واحد من هذه المحاذير، فالذي يتكلم حقيقة هو محمد| الذي يكون كلامه؛ لفرط قربه وأنسه، عين كلام الله، وان إسناد كلامه إلى الله كإسناد سائر الأفعال البشرية إليه على سبيل المجاز دون الحقيقة.

إن الوحي الذي ينظر فيه إلى النبي بوصفه مجرد ناقل ومتلقٍّ بحت، ويجعل العلقة القائمة بينه وبين الله من قبيل علاقة الخطيب بمكبِّر الصوت، والهبوط بدور قلب النبي وضميره إلى مستوى الصفر، ويعتبر جبريل مجرد ساعي بريد يتردَّد على الدوام بين الله والنبي، ويقيم بين الباعث والمبعوث علاقة البُعد بدلاً من علاقة القرب، ويجعل من الرسول مقلِّداً لجبرائيل، ويصوِّر الله سلطاناً والناس رعايا لذلك السلطان، ويرى كلام الله من قبيل كلام الناس، ويقرّ التشبيه بدلاً من التنزيه، نقول: إن هذه النظرة لا تنسجم بطبيعة الحال مع الرأي المذكور آنفاً. وأما المقال التوضيحي الذي سقته فهو مثال النحل القرآني، الذي يعتبر ما يقوم به من عمل عين ما يوحى إليه؛ فتغدو حياته مفعمة بالشهد

والعسل، قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 68_69].

واضح أن للنحل دوراً ومدخلية كاملة في إنتاج العسل، وليس مجرد ناقل للعسل، بمعنى أن يأخذه من مصدره ليوصله إلى غايته، كما يفعل سعاة البريد، ومع ذلك فهو شراب إلهي فيه شفاء للعالمين. أفلا تكفي هذه الآيات ليتدبر المفكرون والعلماء أن القرآن من قبيل نتاج النحلة، وليس من قبيل ما يردده الببغاء؟!

وقد شبهّ ابن عربي في الفصّ الشيثي من فصوص الحكم ما يحصل عليه أهل الكشف من كشوفات بقوله: (فمن شجرة نفسه جنى ثمرة غرسه).

أجل، إن في النحل الآية لمن تدبّر ونظر، ولو أن سماحة آية الله السبحاني نظر إلى النحل والنخل، بدلاً من الببغاء، لحصل على صورة أروع وأفضل للوحي المنسوب إلى محمد صلى الله عليه وآله، فأين الببغاء المقلّد من النحل المنتج والمولّد؟

رابعاً: حذارِ أن تتصوَّر أن النبي كان يسمع كلام الله من جبرائيل على نحو ما نسمعه نحن من كلام النبي، أو تتصور أن النبي كان مقلِّداً لجبريل كتقليد الأمة للنبي. هيهات، فأين هذا من ذاك؟ فهذان نوعان متباينان، ولم يكن التقليد يوماً ما علماً أصيلاً أو سماعاً حقيقيًا[1].

فمحور الكلام في ملك الوحي ونوع ارتباطه بالنبي. وإذا تجاوزنا الحشوية والحنابلة فليس هناك من الفلاسفة المسلمين، ابتداءً من ابن سينا إلى الخواجة نصير الدين الطوسي، وصدر المتألهين، من قال بإمكان الوحي على النبي دون تدخل من قوة الخيال، وإذا كان هناك جبرائيل فهو حاضر ومتصور أيضاً في مخيلة النبي، أي حتى في هذه الناحية تلعب المخيلة دورها في استقبال جبرائيل، وتعطيه صورته وصفته، وإذا كان له من دور فهو إعداد النبي ليصل بنفسه إلى العلم الأصيل، لا أن يكون النبي تلميذاً يتعلم من جبرائيل، ليعلم الناس فيما بعد ما تعلَّمه منه. هذا هو الفهم الفلسفي للوحي، وهو بطبيعة الحال يختلف عن الفهم العامي اختلافاً كبيراً، كاختلاف المنضدة بين رؤية علماء الفيزياء ورؤية عامة الناس، حيث يقول الفيزيائي الإنجليزي (استانلي أدينغتون): «إن المنضدة في عين العامة عبارة عن شيء صلب ومصمت لا تجد فيها أي تجويف، إلا أن

---

(1) صدر المتألهين، الأسفار الأربعة 7: 9، الموقف 7، من السفر الثالث.

هذه المنضدة نفسها في عين الفيزيائي مليئة بالتجويفات حيث يراها عبارة عن ذرات إلكترونية، وهي ذرات ليس لها حدّ معيّن، ولكن يمكن الحديث عن احتمال زيادتها أو نقصانها هنا وهناك، وعندما نعمل المنشار فيها تتمحور هذه الذرات فيما بينها...».

وهذه هي حقيقة الملائكة بالنسبة إلى الخاصة والعامة.

جاء في بعض الروايات: إن لجبرائيل ستمئة ألف جناح، وإن النبي شاهده في المعراج على هذه الصورة. وقال تعالى: {أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ}. وقد ذهب عامة المفسرين ومقلِّديهم إلى تفسير الأجنحة بمعناها الظاهري، متصورين أن الملائكة ذوات أجنحة تطير بين السماء والأرض. وقد ذهب الفخر الرازي، المفسِّر والمتكلِّم في القرن السادس الهجري، إلى التعامل باحتياط واحتراس في تفسير هذه الآية، فقال: ربما كان المراد من الأجنحة مختلف قوى ونشاطات الملائكة، من قبيل: الإرزاق، وقبض الأرواح، وما إلى ذلك. وحينما نصل إلى صاحب الميزان في العصر الحاضر نجده يطرح هذا الرأي بقوة وجرأة أكثر، فقال من خلال التعرض لبحث لغوي تفسيري: إن الملائكة ليست أجساماً ليكون لها أجنحة، وإنما المراد من الأجنحة هي الغايات والأغراض المترتبة على هذه الأجنحة، أي الأدوار والمهام التي تضطلع بها، ثم أضاف: أجل كان يتراءى للنبي أن للملائكة أجنحة، إلا أن هذه ليست هي الصورة الواقعية

للملائكة، كما هو الحال بالنسبة إلى الملك الذي تراءى لمريم عليها السلام، والنار التي أبصرها موسى عليه السلام.

أي أن القرآن يقول صراحة: إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع، إلا أن العلامة الطباطبائي يرى استحالة ذلك، فهي أجنحة في تصور النبي، وليست كذلك في حقيقة الأمر. وطبعاً ليس هذا هو مذهب الطباطبائي فقط؛ فانه في ذلك يسير على خطى الأسس الفلسفية التي أشادها فلاسفة مثل: الفارابي، والخواجة نصير الدين الطوسي، وغيرهما، والتي لا تؤدي إلى غير هذا الرأي .

في هذا التفسير نزول الملاك وإبلاغ الوحي وأمثال ذلك حوادث تقع في صقع نفس النبي، ثم يتم بيانها بلغة دينية، وكأن طائراً له ستمئة جناح قد نزل على النبي، وتكلم معه باللغة العربية .

وببيان آخر: إن التفسير الأوضح لمعنى الأجنحة من وجهة نظر صاحب الميزان أن النبي يقول: إنني أراهم بجناحين وثلاثة أجنحة وأربعة، وعليه لا فرق بين هذا القول وبين ما يقوله العرفاء من أن النبيصلى الله عليه وآله كان يُنزل جبرائيل، وأن جبرائيل هو وعي النبي وإدراكه.

الحقيقة هي أنه يجب اتّباع الفلاسفة والعرفاء في أن ما يقوم به النبي هو تصور الحقائق المجّردة، وهذا ما لا يمكن لغير الأنبياء أن يقوم به، ويأتي العرفاء والشعراء في الدرجة التالية للأنبياء.

ولا يقتصر تصوير النبي للأجنحة والطيور في خيالة المبدع، بل يتعداه إلى تصوير اللوح والقلم والعرش والكرسي، وكذلك النار والحور والصراط والميزان وما إلى ذلك، وقد استعار النبي هذه الصور من البيئة التي يعيش فيها والمألوفة له، فلا نجد أيّة صورة غريبة عن البادية العربية من بين هذه الصور .

أما اللغة والألفاظ والكلمات فلا كلام في أنها قوالب بشرية، وقد استوعبت الوحي في متنها، وكلها تنبثق من مخزون عقل النبي، وتستوعب المعاني المجردة.

وإن صعوبة ما يقوم به النبي تكمن في أن الصور التي يرسمها تفرض حجاباً على المجرَّدات، مما يؤدي بالماديين إلى التعلق بهذه الصور، والغفلة عن المجرَّدات، والأسوأ من ذلك أنهم أخذوا يكفِّرون من يكرس رؤيته على الواقع التجريدي .

الوحي ومشكلة الزمكانية، حصار التاريخ وثوب المناخ المحيط

كان نبي الإسلام يمارس مهام النبوة وهو محاصر من جهتين؛ الأولى: الصور التي تحد من كشوفاته المجردة، وتقيد اللامكان في البعد المكاني؛ والثانية: الحصار العرفي، حيث

يعطي لعدله وسياسته صفة محلية وعصرية، ويلبسها ثياب القوانين القبلية الضيقة، وهي التي يُدعى الشرّاح إلى ترجمتها فلسفياً وعرفانياً وثقافياً.

ما أن يتكلم الله (أو النبي) باللغة العربية، ويمضي ما عليه العرب من الأعراف، يكون قد فرض على نفسه بعض المحدوديات مسبقاً. ولم يقم أي دليل على أن اللغة العربية هي أفضل اللغات في احتواء المعاني المجرَّدة في صقعها، فإن المواضيع وان كانت من النبي إلا أن التصورات والمفاهيم لغوية، وإن هذه التصورات والمفاهيم تضع القيود على التصديقات، وهكذا الأعراف والتقاليد السائدة في عصر النبي، والتي لم تكن أفضل الأعراف والتقاليد الموجودة والممكنة، ولكن الشارع أمضى أكثرها وصادق عليها، فاتخذت صفة الأحكام الإلهية.

إن الوحي الذي نزل على النبي قد نزل بالعربية، والعربية هي المرآة المنبثقة عن ثقافة القوميات العربية (وليست هناك لغة نازلة من السماء دون غيرها ـ ويتغنشتاين)، وهذه الثقافة هي التي تغدو مادة لتصوير الوحي. أوَليس النحل الذي يتغذى على الأزهار والنباتات المحيطة به، ويحولها إلى عسل أفضل مثال لما يقوم به الأنبياء في الاستفادة من المواد الموجودة بين أيديهم، وما يوفره الزمان والمكان الذي يعيشون فيه، ويوظفونه في تجربة وحيهم، ويصنعون بذلك المعجزات التي لا تقصر عن تحويل التراب إلى ذهب .

يجب عدم الابتعاد كثيراً، فلا بد من قراءة مفهوم (النزول) و(البشرية) بعمق لفهم معنى الوحي، واعتبار كل ما فيه بشرياً، وهذا هو عين ما يقوله القرآن .

يتساءل المعاصرون للنبي صلى الله عليه وآله قائلين: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا}، فكانوا يتصورون أن النبي يجب أن يكون ملكاً لا يأكل ولا يتزوج. والمعاصرون أيضاً يردِّدون تساؤلات مشابهة، حيث يقولون: ما لهذا الرسول يتناول ثقافة عصره، ويمشي في أسواق التاريخ وأزقته؟ كلا المنطقين واحد، فكلاهما يريد من النبي أن يتنصَّل عن بشريته المحاطة بالزمان والمكان واللغة والثقافة، ولا يكون ذلك إلاّ بتحوّله إلى ملك.

أجل، كان النبي إنساناً استثنائياً، وكما يعبّر عنه في اللغة الدينية بأنه (ولي الله) ، إلا أن ولايته لا تنفي بشريته، فإن وعاء البشرية من السعة بحيث يحتوي الولاية والنبوّة. وإن شَهْد كلام النبي يشهد بأنه نحلة في العالم القدسي، وليس ببغاءً فوق سدرة المنتهى. وكانت اختياراته واسعة أيضاً، فكل ما يفكر به أو يقوله كان الله يصادق على صحته ويمضيه، ألم يقم بزيادة عدد الركعات في الصلاة[1]؟ أَ لَم يقل: «لولا أن أشق على أمتي لأوجبت السواك لكل صلاة»[2]؟ أَلَم يقل: «لو قلت حجّوا في كل عام لوجب الحج في

---

(1) مسند أحمد بن حنبل؛ وسائل الشيعة للحرالعاملي.

(2) سنن الترمذي.

كل عام»[3]؟ ولم تكن هذه أحكام مؤقتة، أي إنه رغم بشريته يرى نفسه مقبولاً عند الله، وفي بشريته يتخذ الإيجاب والتحريم صبغة إلهية .

إن هذا النوع من النظر إلى الإسلام والأحكام والقرآن يساعد على فهم ظاهرة الوحي، ويخفف من وطأة التأويلات المتكلفة، ويفتح القرآن أمام أعيننا بوصفه نصّاً تاريخياً وبشرياً، ويحول جغرافيته السماوية إلى جغرافية أرضية .

ومن هنا فسوف لا نستغرب أن يكون التقويم القرآني تقويماً قمرياً، وأن يوجب على جميع المسلمين صيام شهر رمضان، أو أن يرشد الناس إلى عظيم صنع الله من خلال النظر في خلق الإبل، أو أن يحدّث جميع الأديان عن إيلاف قريش، أو أن يلعن خصوص أبي لهب من بين جميع الأعداء، أو يُجلس حور الجنان في الخيام العربية، أو يتحدث عن وأد البنات، أو المبالغة في إيمان الجن، أو الإخبار عن أزواج النبي وأفعالهنّ الصبيانية، أو بيان عقائد الأعراب بشأن بنات الله، مما هو مصبوغ بأجمعه بلون عربي وقومي وشخصي هو شديد الصلة ببادية الحجاز، وإننا إذا ابتعدنا عن شبه الجزيرة العربية قليلاً لن نعثر على شخص يطرب لهذه الصور الغريبة عن ثقافته وأعرافه .

وكذلك لا نستغرب إذا وجدنا القرآن يجيب عن أسئلة لا هي بالمهمة، ولا هي تستهوي غير العرب آنذاك، كالسؤال عن الأهلّة، وعن ذي القرنين، وعن سنوات اليأس عند

---

(3) صحيح مسلم.

النساء، والقتال في الأشهر الحرم، مما يعود إلى السابقة الذهنية والتاريخية لسكان الجزيرة، أو إلى أسلوب ونمط حياتهم.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى السماوات السبع، أو خروج النطفة من بين الصلب والترائب، أو رجم الشياطين المتطفلين بالشهب، أو كون القلب هو مركز الإدراك (دون المخ)، مما يعود إلى قصور في العلوم البشرية آنذاك.

فأين هذه الآيات من آيات أخرى، من قبيل: قوله تعالى: {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}، و{اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، و{ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}، و{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ}، مما يكشف عن أوج المعراج الروحي للنبي، وقوة اكتشافه لحجب الغيب، وإلا فكيف نفسر كل هذه النوع من القبض والبسط والصعود؟

أليسَ من الأصح البحث عن هذا القبض والبسط في وجود النبيّ نفسه، وهو الذي دخل المدرسة الاجتماعية بوصفه أستاذاً معالجاً ـ حيث عد القرآن الشفاء والتعليم رسالتين أساسيتين في مهمة النبي ـ لإلقاء بعض الدروس ـ وهي الحكم وثمار النبوة التي ملأت جوانحه حتى فاضت ـ فأحبّ أن يشارك بها الآخرين، حيث قال تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، وحل مشاكل الناس وإزاحة أوجاعهم {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}، إنه ينظر إلى ما حوله؛ فيجد نفسه يتيماً من دون مأوى، وإذا به مفعماً بالهداية، وقد تزوج من سيدة ذات يسر وثراء، فيرجع كل ذلك إلى الله ونعمته، قال تعالى: {أَلَمْ

يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى}، ويعد الشكر واجباً تجاه كل هذه النعم، ويعلم طلابه دروس الشكر والطاعة والبعد عن التكبر والأنا والجاهلية، ويحذرهم من العصيان والتمرد والانحراف عن المنعم، فتحدث ضجة من الفصل، وتبادر جماعة إلى الإنكار، وهناك من يشهر السلاح بوجهه، وهناك في يختبره بأسئلة تافهة، وهناك من يؤمن به ويسلم له، كل هذا منعكس بالدروس الشفهية التي ألقاها، واتّخذت فيما بعد شكل المصحف، فيولد القرآن في صلب هذه التجربة الحية، ويتحول المعلم الشافي لدى مواكبته لهذه التجربة الحيوية أكثر خبرة، وتغدو دروسه أكثر ثراءً، ولا شك في أن حياته لو امتدت لأكثر لكانت تجربته أكثر غناءً وسعةً، وبعكس ذلك لو اكتفى واقتنع بعزلته في الغار لما عرفنا عنه سوى اكتشافات متعالية بسيطة .

وعليه من الصعب القبول بأن جميع هذه الجزئيات والأحوال والأسئلة قد كانت في قبالها آيات مكتوبة ومعينة منذ الأزل، وأن الله قد وظف جبرائيل لإنزال كل آية في وقت الحاجة إليها، وهو عين ما يصوره عامة العلماء السابقين، باستثناء الفلاسفة الذين كان لهم تصور فلسفي عن الوحي، وقد ذكروا خفق جبرائيل بجناحه صراحة، وتردده السريع بين السماء والأرض.

كما أن من الخطأ أن تتصور أن كل حادثة تحدث في الأرض تؤدي إلى تجددٍ في إرادة الباري تعالى؛ لينزل فيها آية، ويأمر جبرائيل بحملها إلى النبيصلى الله عليه وآله، فهذا

ما لا ينسجم حتى مع ما بعد الطبيعة لدى الفلاسفة المسلمين، كما سنذكر ذلك؛ فان مثل هذا التصور يحول جميع حياة النبي إلى قصة سينمائية معدّة سلفاً، ليؤدي كل صحابي دوره بشكل يتطابق والآية الموجودة والمعدة قبل إنزالها على النبي، وليس للنبي من دور سوى التجوال على خشبة المسرح حاملاً مكبر صوته ليكرر ألفاظاً يقرأها عليه جبرائيل، فهل يمكن التنزل بالنبي إلى أكثر من هذا المستوى؟!

أليس من المنطقي والطبيعي أن نقول: إن لشخصية النبي الدور الكامل والتام، بأن يكون هو الكاشف، وهو المعلم، وهو الناطق والسامع والمشرِّع؟ أي إن ما قام به الله تعالى هو إرسال (المعلِّم)، وترك الأمور الأخرى خاضعة لمدار تجاربه وردود فعله، وقد كان هذا المعلم معدّاً ومحصَّناً بحيث كان يعي جيداً ما عليه فعله وقوله، ومع ذلك كان بشراً، ينسحب عليه جميع ما ينسحب على البشر، فأحياناً يرتفع رصيده التعليمي، وأحياناً يبتلى بطلاب مشاغبين، وأحياناً ينطلق شوقاً وحماساً، وأحياناً يصاب بالملل والضجر، وتارةً يسمو في كلامه، ويهبط تارة أخرى. وكالنحل يتغذّى من كل شيء؛ من الكشوف المعنوية السامية؛ والتساؤلات؛ وردود الأفعال المشاكسة والعدوانية؛ وكذلك ما يختزنه من معلومات، وطبعاً مآل الأمور ينتهي بأجمعه إلى المبادئ العالية، ومنها إلى مبدأ المبادئ وغاية الغايات، حيث لا تسقط من ورقة إلا بإذنه وعلمه تعالى، ولا ينتج النحل من العسل إلا بوحيه .

وطبعاً إن القرآن هو نتاج حالات النبي الخاصة، ولكنها ليست بحيث تكون أدنى من سائر أحاديث النبي، فهل سورة (المسد) في دلالتها وعباراتها وبلاغتها أفضل من سائر كلمات النبي غير القرآنية؟

إن هذان نموذجان من الوحي: النموذج الذي أقدّمه أنا، والذي هو أوفق بتجربة النبي الحيوية، وما بعد الطبيعة، التي يقول بها حكماء المسلمين، وتأويل العرفاء؛ والنموذج الذي تقدِّمونه أنتم، والذي يروّج الأساطير، ويوافق رؤية أهل الحديث. أنتم تقولون بأن الله يقوم بكل شيء من خلال جبريل، أما أنا فأقول بأنه تعالى يقوم بكل شيء من خلال النبي، وأن جبرائيل ما هو إلا جزء من النبي .

قاعدة: كل حادث مسبوق بمادة ومدة، وقفة وتوضيح

خامساً: تقدم مني الاستدلال بالقاعدة الفلسفية القائلة: «كل حادث مسبوق بمادة ومدة» وذهبت إلى أن الوحي أيضاً كان مسبوقاً بالشروط المادية. ومن هنا اعتبرت الشروط الذهنية والجسدية للنبي معدّة وممهَّدة لنزول الوحي، وهذا ما استدعى اعتراض آية الله السبحاني، إلا أنني لا أرى اعتراضه وارداً، فقد صرح صدر المتألهين الشيرازي، في المرحلة السابعة من الفصل السادس عشر، من الجزء الثالث، من الأسفار الأربعة، ص55، بأن هذه القاعدة لا تقتصر في تطبيقاتها على الأمور المادية، كما تصوّرتم، بل هي جارية في الصور الجسمية والنفوس الإنسانية، ولا يخرج منها إلا

المفارقات المحضة، وإن أستاذكم العلامة الطباطبائي قال في حاشيته على هذا الموضع من الأسفار: إن هذه القاعدة جارية حتى على قول المشائين الذين يذهبون إلى تجرد النفوس، فيكون جريانه طبقاً لرأي صدر المتألهين، حيث يرى أن النفوس جسمانية الحدوث، روحانية البقاء، أوضح.

وبعبارة أخرى: إن كل ما يتعلق بالمادة، سواء أكان صورة أم روحاً أم وحياً، فهو خاضع لهذه القاعدة، وإن الأرضية المادية شرط في حصولها وحضورها. وطبعاً ليس للمادة علة فاعلة كما تقرر في الفلسفة الأولى.

وهنا نضيف: إن تجدد الإرادة بالنسبة إلى الباري تعالى محال؛ إذ لما كان الله تعالى لا يقع معرضاً للحوادث، ولا يطرأ عليه التغيير، فلا يمكنه أن يغير إرادته من وقت لآخر، وعليه فان تردد جبرائيل بين الله والنبي، ونزوله بآية عند كل حادثة، لا ينسجم مطلقاً مع ميتافيزيقية الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، ولا يمكن توجيهه أو تعقله. نعم، قد يناسب تصوراً عامياً يرى الله سلطاناً، وجبرائيل مجنحاً، وهيئة بطليمية، وهو التصوير الذي ذهب إليه عموم المفسِّرين للقرآن ممَّن ينتمي إلى مرحلة ما قبل التطور.

ونضيف أيضاً: إن الأقوال الإلهية ـ طبقاً للحكمة والفلسفة الإسلامية ـ غير مسبوقة أو معللة بالأغراض، وقد ثبت في محله أنه يستحيل على الباري تعالى أن يقوم بعمل للوصول إلى غاية وهدف، فهو ليس فاعلاً بالقصد، فإن تجدد الإرادة بالنسبة له، وإنزال

آية جديدة للوصول إلى غاية، أو إيضاح مسألة، أو إيجاب أمرٍ، أو تحريمه، من أشدّ المحالات عليه تعالى؛ فإنه، وإن كان كل شيء يتم بإذنه وعلمه وإرادته تعالى، إلا أن هذه الإرادة ليست كالإرادة الإنسانية.

وإن حلّ جميع هذه المعضلات يكمن في الذهاب إلى أن نفس النبي القوية والمؤيَّدة هي الفاعلة لتلك الإرادة، وصاحبة الأغراض والغايات، وخالقة الآيات، وواضعة الأحكام، وهي النفس التي استحقت؛ لفرط قوتها، أن تصبح خليفة لله على الأرض، وأن تغدو يده يد الله، وقوله قول الله، وأن يكون القرآن معجزة له.

إن النظام الواحد للوجود، والنسبة الفاعلية والمعية القيومية لله تجاه جميع الممكنات، وقيام العلية في كافة أنحاء الوجود، لا تبقي أيّ موضع للروابط الاعتبارية والإنسانية القائمة على السلطان والسفارة، فإن الله لا يدير أمر العالم كما يفعل الملك في مملكته، وإنما إدارته كإدارة النفس للجسد (في النماذج التقليدية للطبيعيات)؛ فان الجسد يعمل كماكينة أوتوماتيكية، ولكنه خاضع لإرادة النفس وسلطتها، وليس الأمر بأن الدورة الدموية لا تقوم بوظيفتها إلا بإرادة من النفس. وإن ما قاله صدر المتألهين في هذا الشأن مجرد تمثيل وتوضيح يثبت إننا ما لم نكوّن تصويراً صحيحاً عن نوع الرابطة بين الله والعالم فلن يتضح معنى النبوة والوحي، وسنبقى في حصار الأساطير التي تنحت لكل رابطة علية

أو فاعلية صورة حسية، وتملأ الأجواء بضجيج الكائنات الخيالية التي تتردد بين السماء والأرض.

علماء المسلمين وإعادة تكرار تجربة الكنيسة في تعارض العلم والدين

سادساً: في ما يتعلق بإشاراتكم في خصوص تعارض ظواهر القرآن مع العلم سوف لا أطيل الكلام، وأكتفي بإبداء دهشتي من أن علماء المسلمين والشيعة كأنهم لم يتعظوا من تجارب الكنيسة، فها هم يكررون نفس أقوالها، ويعيدون سياستها تجاه أمثال: كوبرنيق وغاليلو، ولا زالوا يعتبرون فهمهم للدين هو البديع، وهو الذي ينجع في حل جميع المشاكل، ولا يفكرون قليلاً في أن البناة الأوائل قد تركوا هذا النهج منذ أمدٍ بعيد، ولجأوا إلى أنواع القبض والبسط والانعطافات الكبيرة والعظيمة في فهمهم للصحف والكتب المقدَّسة. وقد مكثوا ردحاً من الزمن يمنّون النفس بالتوفيق بين العلم الحقيقي والوحي الحقيقي، وأخذوا يسخرون من العلم لفترةٍ، وتحدثوا برهةً عن عدم فهم المراد الجدي للمتكلم، وعمدوا في أحيانٍ أخرى إلى تأويلات بعيدة، ولكنهم رغم ذكائهم وعبقريتهم أخفقوا في نهاية أمرهم، وأذعنوا بفشلهم، وصحّحوا مسارهم وأسّسوا لطرحٍ جديد لإداركهم وتصورهم عن الباري تعالى والوحي والعلم من الأساس، وأخرجوا أنفسهم من زوبعة هذا الإعصار الهادر. إن حجم المؤلفات المتعلقة بالتعارض

بين العلم والدين قد بلغ من الكثرة درجةً لا يستهان بها، ومع ذلك لا يزال نصيبنا منها محدوداً جداً.

إذا لم يتضح المراد الجدي للمتكلم حتى بعد مضي أربعة عشر قرناً فلأيّ شيءٍ وأيّ زمن خلق هذا المراد الجدي؟! إذا كان يتعين علينا الانتظار طويلاً ليقوم العلم التجريبي بالكشف عن المراد الجدي من السماوات السبع فلماذا كل هذا العداء والجفاء بحق العلم؟ وهو العلم الذي نستمد منه برهان النظم لإثبات وجود الله تعالى، والعلم الذي يستند إليه السيد الطباطبائي في تأويل معنى رجم الشياطين بالشهب ويفتي على خلاف إجماع المفسرين؟ وإذا كان العثور على المراد الجدي للمتكلم يستغرق كل هذا الوقت الطويل وهذه العقبات في مثل هذه المسائل الثانوية، مثل: السماوات السبع، مما لا ربط له بسعادة المؤمنين وشقائهم، فكيف يكون الأمر في ما هو أهم، كما في المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد؟ ألا يؤدي هذا النوع من فهم القرآن والتعاطي معه إلى خروق لا تقبل الرتق؟

ألا يمدنا نهج المعتزلة بطريق أفضل من خلال اعتبار هذه المسائل القرآنية مسايرة في حقيقتها للمعتقدات السائدة بين العرب، فنتخلص من التأويلات البعيدة وغير الصحيحة؟ ونخلص القرآن وننفض عنه غبار هذه الإبهامات؟ سواءٌ أكانت هذه الآيات مجرد مجاراة للعرب أم نابعة من نقص معلومات النبي.

قلتم: لو احتمل وجود مثل هذه الأخطاء العلمية في القرآن لن يمكن بعدها الاعتماد على القرآن، ويغدو كل القرآن محتمل الخطأ !

وهذا كلام عجيب؛ فان هناك في القرآن محكماً ومتشابهاً، وناسخاً ومنسوخاً، ومع ذلك لم تنفصم عرى الاعتماد والثقة بالقرآن .

أجل، ستبقى هناك آيات مجهولة المعنى، فلا يعرف ما إذا كانت محكمة أو متشابهة، مثل قوله تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: 256]، فقد ذهب بعض المفسِّرين إلى نسخها بآية القتال، وصحيحٌ أننا إذا قلنا بالنسخ ستغدو بعض مواطن القرآن عديمة الجدوى، ولكن هل صرف احتمال النسخ أفضى إلى عدم جدوائية القرآن؟ وهل أخلّ بالتفسير وفهم الكتاب والتعاطي معه؟ هذا ما كان يقوله الظاهريون أيضاً، حيث كانوا يحذرون من القول بوجود الاستعارة والمجاز في القرآن، قائلين: إن ذلك يؤدي إلى عجز الباري تعالى عن استعمال الحقيقة، وسيختل الاعتماد على القرآن، وقد يختلط علينا الأمر أحياناً، فلا نعرف ما إذا كان الاستعمال في بعض المواطن حقيقياً أم مجازياً. إلا أن تاريخ القرآن أثبت بطلان هذا الوهم، وإن أبقى على بعض الموارد المتشابهة.

سماحة آية الله السبحاني، ليس الكلام فيما إذا كان السيد الطباطبائي قد أخطأ في تفسير (الشهب والشياطين) أو كان مصيباً، وإنما الكلام في المنهج، وأنه استفاد في هذا التفسير من العلم الحديث، والميتافيزيقيا الإسلامية اليونانية، فأبطل فهم جميع من سبقه من

المفسِّرين، فإذا كان العلم بمثل هذه القوة، وكان حسناً، فهو حسن في جميع المواطن، حتى عندما يؤدي إلى نتائج تخالف ما نحن عليه. والمهم هو فتح باب الحوار بين الوحي والعقل، لا إخضاع أحدهما لڤيتو الآخر.

ربما كان حديث تأبير النخل ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا غير مهم، فهناك الكثير من هذه الأحاديث الموضوعة في كتب الشيعة والسنة، إنما المهم هو أن المسلمين وكبار العلم والعرفان قد عايشوا هذه الروايات لقرون طويلة، وآمنوا بها، ولم يجدوها منافية للإيمان والنبوة، فقد ذهب شخص بحجم ابن عربي ـ وهناك الكثير من أمثاله ـ إلى الاعتقاد بجهل النبي الأكرم حتى بعلوم عصره، من الطب والفلك والنبات، فضلاً عن العلوم التي تأسَّست فيما بعد، ومع ذلك لم يعتبر ذلك مؤشِّراً على ضعف إيمانهم، ولا موجباً لوهن النبوة.

أَلَم يؤمن الكثير من علماء أهل السنّة بأن قصة الغرانيق كانت تدخُّلاً من الشيطان في الوحي النبوي، ومن بينهم الغزالي، وابن تيمية، ومولوي؟ أوَلم يذهب بعض علماء الشيعة إلى تحريف القرآن؟ قد لا ترون صحة هذه الآراء، ولكن لا يمكن إنكار أن الكثير من المسلمين، بل وكبار علمائهم، كانوا يؤمنون بها، دون اعتبارها منافية للإسلام والوحي النبوي، كما بقوا على تمسكهم وإيمانهم بإسلامهم وقرآنهم، والأمر المهم الآخر أنه لم يبادر أي فردّ إلى تكفير من يقول بتحريف القرآن، أو يؤمن بقصة الغرانيق.

كلمة الختام

ينبغي لنا أن نتعرف الإسلام بما فيه من تنوُّع الطيف اللوني؛ إذ لا ينحصر الإسلام بما يدرس في الحوزات الشيعية في إيران، أو المدارس الوهابية في شبه الجزيرة العربية، بل الإسلام هو جميع الإدراكات والتفاسير المقدّمة عن الإسلام، وهكذا المسيحية واليهودية والماركسية.

لو اقتصرنا في فهم الإسلام على ما يقوله المحدِّثون والفقهاء لما وصلت الديانة الإسلامية إلى ما وصلت إليه من الحضارة المرموقة، فلو أنّ الأرثوذوكسية نجحت في فترة ما بالوقوف أمام انسيابية الكلام والتفسير فعلى الحوزات العلمية أن تكون الرائدة في إزاحة العقبات من أمامها، وأن تعمل على الترحيب بتنوّع الآراء الكلامية، دون وصفها بالكفر والإيمان ودون أن تصاب بعقدة الاستغناء والجمود. إن الطريق الوحيد لاستمرار الدين وبقائه إنما يكون عبر فتح الأبواب لاستنشاق هواء جديد ونظيف، والعودة إلى ما كان يتمتع به الإسلام من تنوّع في الثقافة، وتسابق المسلمين إلى أخذ الحكمة من الهند والصين وإيران واليونان.

وليبقوا في الأقل على جميع السنن والطرق والمشارب المتنوعة الثقافية والإسلامية، ولا يتمنوا حياة واحد وموت جميع من سواه، فقد تعايش في تاريخ هذه الديانة، التي شكلت فسيفساء بجميع الألوان، ابتداءً من أهل التأويل والباطنيين وإخوان الصفا والمتصوفة

والفلاسفة إلى أهل الحديث والظاهريين والحشوية والحنابلة والمجسّمة وغيرهم، وكان الكل مسلمين، وقد أسهم الجميع بتحريك ديناميكية هذه الحضارة. وإذا حدث في يوم أن تغلَّب أحد هذه الألوان على سائر الألوان الأخرى بالقهر والغلبة سيكون ذلك اليوم هو يوم احتضار هذه الديانة. ليس من العبقرية غلق الأبواب والنوافذ، فإن أمكنكم أن تفتحوا باباً جديداً فافعلوا.

لم يبقَ أمام المسلم المعاصر من خيار سوى الحوار مع الصديق والعدو، ولكن مع العالِم منهما دون غيره؛ وذلك بهدف تحريك الجمود والذبول الذي أصاب الإلهيات الإسلامية، والعودة بها إلى ما قبل العصر الأرثوذوكسي، والحوار بحاجة إلى تحمل وسعة صدر، واستعداد، وتواضع، وإقرار بالحاجة، ورغبة في التعلم، وجرأة في التفكير، ونبذ للتقليد، واحترام الفكر بوصفه تدفقاً مقدساً، لا منطقة مخطورة ومحظورة أو مجلساً للمعصية، إن الذين يطالبون الباحثين بالتوبة إنما يأتون ببدعة سيئة، يحبسون فيها طائر الفكر في قفص الفقه، ويخيفون ظباء التفكير من ذئب التكفير، ويشوبون التحقيق بالتفسيق، ويرفعون المقلِّدين على المحقِّقين، ويُجِلّون الببغاوات ويقدِّمونها على النحل، ويحولون الدين إلى حلبة للعنف والخصومة، ويبيعون الخل بدلاً من العسل .

وهل إذا سقينا شجرة الفقاهة بماء الكلام الآسن ستنمو صحيحة لتصدر الأحكام والفتاوى السليمة؟ وهل سيتمكن الكلام المصاب بآفة الجمود الفقهي من كسب جولة

جديدة؟ إن الفقهاء المعاصرين قد تورطوا في مغالطات مهلكة، فبدلاً من اعتمادهم على المتكلمين وكلامهم في عملية تجديد فقههم تراهم يهاجمون المتكلمين، وبدلاً من الإقرار بحاجتهم إلى المتكلمين تجدهم يصرون على احتياج المتكلمين إليهم، وما ذلك إلا بسبب غرورهم واستسمانهم لأنفسهم واستضعافهم للكلام، وما دام التوازن والتواضع مفقوداً فلا ترجو حلاً لعقد ومعضلات هذا الدين المستحكمة !

❖ كلمة أخيرة للشيخ جعفر السبحاني مع سروش

صرح الشيخ جعفر السبحاني بأن سروش لا يراعي أدب الحوار العلمي، ويقوم بإهانة الشخصيات العلمية من خلال إثارة الضجيج والضوضاء، ولكي لا يعيد عبد الكريم سروش من خلال رسائله المتكررة أسلوبه المألوف فضَّل الامتناع عن الإجابة المباشرة، وقال:

عدم مراعاة سروش لأدب الحوار العلمي

منذ إصدار مقابلته الإذاعية الأولى في هولندا وجدت من الواجب عليّ أن أوضح له وللقراء حقيقة الأمر، والحمد لله كان الجواب مفيداً ونافعاً. وكان أدب الحوار فيها هو السائد، وقد أجاب السيد سروش عن رسالتي الأولى، فأجبت عنها؛ انطلاقاً من المسؤولية الملقاة على عاتقنا، وكان جوابنا الثاني أوسع وأكثر شمولية، وقد جاء بنتائج إيجابية أيضاً كالإجابة الأولى، وقد أثنى عليها الكثير من أساتذة الحوزة وكبارها؛ لما تحتويه من الإتقان والمجادلة بالتي هي أحسن.

إلا أن رسالته الثالثة قد خيّبت ظني، رغم أن فاتحتها كانت تبشر بخير؛ وذلك للأسباب التي سأشير إلى بعضها:

1ـ إن موضوع البحث يدور حول نظرية الوحي، ويجب أن يقتصر البحث على هذه الجهة، ولكنه للأسف الشديد يخلط بينها وبين سلسلة من الانتقادات والاعتراضات الفردية والاجتماعية، ويخرج من محور البحث، وفي الحقيقة يخالف بذلك أدب الحوار العلمي.

2ـ إن النظرية التي يطرحها كلما أمعن في توضيحها واجه إشكالات أكثر تعقيداً. وهو في ذلك شبيه بالمواضيع الكلامية التاريخية الثلاثة المعروفة بين المحققين، والتي يقولون عنها: إن القائل بها كلما أمعن في توضيحها زادت تعقيداتها، وهي:

1ـ نظرية (الطفرة)، للنظّام.

2ـ نظرية (الحال)، للبهشمي (من أنصار أبي هشام).

3ـ نظرية (الكسب)، للأشعري.

وقد قال الشاعر العربي في ذلك متهكماً:

مما يُقال ولا حقيقة عنده (الكسب) عند الأشعري و(الحال)

معقولة تدنو إلى الإفهامِ عند البهشمي و(طفرة) النظّامِ

ـ كان على هذا المنظّر بعد أن أدرك أن جميع المحققين حول القرآن في إيران الإسلامية اعتبروا نظريته مردودة أن لا يصّر عليها إلى هذه الدرجة، فإن الكثير منهم كانوا من أصدقائه المقرَّبين، ولكنه مع ذلك لا يزال مصراً على نظريته، بل ولا يتريث قليلاً ليعطي نفسه فسحة للتفكير في هذه الانتقادات!

فتجده من جهة يقول: إنني مؤمن بجميع ما ورد في القرآن من آيات، بما في ذلك قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} [النمل:6].

ومن جهة أخرى يقول: إن الألفاظ ووضع المعاني في قوالبها هو مجهود يقوم به النبي، هذا في حين أن كلمات القرآن لا تطلق على المعاني فقط، وإنما تشمل في إطلاقها الألفاظ أيضاً، وكذلك سائر الآيات الأخرى الواردة في هذا المضمون.

3 ــ إن رسائله، وخاصة رسالته الأخيرة، كانت مشحونة بالعقد والصخب، حتى بلغ به الأمر إلى التجاوز على الشخصيات العلمية التي أفنت عمرها في خدمة الإسلام والقرآن.

إن شخصاً مثل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي فقيه بارز وباحث قرآني عميق يحظى باحترام كافة الحوزات العلمية، وهو من الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي، ويعدّ

مؤلَّفه (الأمثل) في اللغتين الفارسية والعربية مصدراً لجميع المحققين والمؤلِّفين، إن مثل هذه الشخصية لا يتم صنعها اعتباطاً، فيستسهل هتكها والتجاوز عليها.

إن هذا الأمر وأمور أخرى أدت بي إلى الامتناع عن الإجابة عن رسالته الأخيرة بشكل مباشر، خشية تكرار تجاوزاته السابقة، ولكن في الوقت نفسه هناك من أجاب عنها من المنتسبين إلى جامعة الإمام الصادق عليه السلام، وستكون في متناول الراغبين قريباً إن شاء الله تعالى.

ملاحظة: الردود على ما طرحه د. عبد الكريم سروش في مقالاته وكتبه توالت في مقالات ودروس وكتب سماحة الشيخ، ويمكنك أن تجد بعضها ضمن المقالات المنشورة في مجلة نصوص معاصرة ومجلة كيهان وكذلك موسوعة الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني، خصوصًا ما يتعلق بموضوع الوحي، وهي جميعها متوافرة على موقع مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام: www.imamsadeq.com

القرآن والوحي، دراسة فلسفية ودينية:

نقد نظرية سروش

الشيخ حسين علي المنتظري*

ترجمة: السيد حسن مطر

تمهيد

قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: 192ـ195]

لم أكن أعتزم الخوض في هذا البحث العلمي؛ وذلك لأنّ الإجابة عن الشبهات تندرج في وجوبها تحت عنوان الواجبات الكفائيّة، وقد قام بأعباء الإجابة الكثير من الفضلاء، ولكن بعد أن وجّهت إليّ هذه الأسئلة من قبل أشخاص من الداخل والخارج وجدتُ ضرورة ذكر بعض الإجابات باختصار.

* أحد مراجع التقليد في إيران، ويعدّ من أبرز فقهاء ورموز الحركة الإصلاحية، له مساهمات في الفقه الإسلامي.

إنّ المراد الجدّي لسماحة الدكتور سروش في ما يتعلق بموضوع البحث وإن كان مبهماً، ولكن نقول بشكلٍ عام: إنّ كلّ بيان حول الوحي ـ الذي يعدّ الأساس لجميع الأديان الإلهيّة ـ إذا أدّى إلى مفهومٍ خاطئ ـ مهما كان ذلك المفهوم غير مقصود للمتكلم ـ قد يسهم في إضلال السامع والمتلقي، فإما أن يؤمن بمضمونه ويعتقده، أو يتهم بالكفر والفسق وأمثالهما، وكلا الأمرين مذموم؛ ولذلك أذكر بعض الحقائق بشأن الوحي، ربما كانت هي المرادة من كلام الدكتور سروش، أو أسسها العامة.

وقبل التطرّق لآيات القرآن والأحاديث الشريفة في هذا المجال، أرى من اللازم التذكير بمسألتين مؤثرتين في بيان حقيقة الوحي وشرح معناه:

1 ـ المراحل الثلاث لنظام الوجود

طبقاً لما هو مبيّن في الحكمة والفلسفة الإلهيّة، وتشهد له الأدلة النقليّة، وتؤيّده إدراكاتنا ومعلوماتنا، فإنّ للوجود ثلاث مراحل:

1 ــ مرحلة الموجودات المحسوسة والطبيعيّة، التي تتكون من المادّة وتخضع لأحكامها، مثل: الأجسام التي لها جرم ومادّة وأحكام، من قبيل: الرائحة واللون والحجم، ويمكن

لنا أن ندركها بحواسنا الخمسة الظاهريّة، وهي جميع الأشياء والأمور المحيطة بنا، ونتمكن من لمسها وشمّها وما إلى ذلك.

2 ــ مرحلة الموجودات المثاليّة والخياليّة، التي وإن كانت فاقدة للوجود المادي، إلا أن لها أحكاماً شبيهة بأحكام المادة، وتدرك بالحسّ الباطني، من قبيل: قوّة الحسّ المشترك والخيال والمخيّلة؛ كالصور الذهنيّة للأشياء الجزئيّة الغائبة عنا، ولكن نحمل عنها صورة في مخيلتنا، وندركها بصورة الحسّ المشترك، كصورة شخص زيد الذي رأيناه أمس، أو رائحة أو طعم الوجبة التي تناولناها قبل يوم، أو ما نراه في عالم الرؤيا ممّا له (بحسب المصطلح) تجرّد برزخي.

فما هو موجود في هاتين المرحلتين ويمكن إدراكه يعدّ بأجمعه من الأمور الجزئيّة.

3 ــ مرحلة الموجودات العقليّة، والتي هي من الأمور الكليّة والمحيطة والمجرّدة من المادّة وأحكامها، ولا تدرك إلا بقوّة باطنيّة أقوى من سائر القوى الإدراكية الأخرى، وتعرف بأسماء، مثل: العقل والقلب والروح والصدر والفؤاد، وما إلى ذلك مما يسمى بذلك بلحاظات واعتبارات مختلفة.

إنّ الموجودات في هذه المراحل الثلاث كما تترتب على بعضها، ويكون لذاتها ترتب حقيقي وخارجي؛ فإنّ لإدراكها ـ الذي له اتحاد معها بنحوٍ من الأنحاء ـ ترتباً على بعضها أيضاً، ويوجد بينها تقدّم وتأخر ذاتي.

2 ـ تجرّد العلوم والمعارف الإنسانيّة ـــــــ

لما كانت العلوم والمعارف ـ خاصّة ما كان منها مرتبطاً بمعرفة المبدأ والمعاد والمبادئ العالية لنظام الكون ومنازل السلوك المعنوي ـ أموراً مجرّدة عن المادّة فلا يمكن للإنسان الحصول عليها إلا من طريق تجاوز عالم المادّة والطبيعة، والاتصال بمراحل ما بعد الطبيعة، وإنّ هذا الاتصال هو في واقعه نوع من تجرّد النفس عن المادّة، وهو بنفسه مفهوم مشكك بحسب ظهوره شدّة وضعفاً.

وبشكلٍ عام فإنّ هذا الاتصال وما يتعقبه من الإدراكات إنما يمكن من خلال طريقين أساسيين:

3 ـ العلوم الاكتسابيّة والعلوم الكشفيّة

أ ـــ يتوصّل الإنسان أحياناً إلى شيءٍ باختياره وإرادته وتفكيره، من خلال تحصيل أجزائه الذاتيّة أو عوارضه أوعلته أو دليله، وهي طريقة أكثر الناس في تحصيل العلم والإدراك، وطبعاً إنّ الإنسان في مثل هذه الحالة، وإنْ كان يفكر بإرادته واختياره، ويعثر في ذهنه

على الأجزاء والعوارض والمقدّمات، ويقوم من خلالها بالتعريف أو تأليف القياسات، إلا أنّ الفكر ليس هو العلة الإيجاديّة التامّة للوصول إلى المطلوب العلمي، بل هو مجرّد علة إعداديّة للوصول إلى المطلوب، غير أنّ الظهور القهري للعلم والإدراك يعود إلى المبادئ الغيبيّة المجرّدة عن المادّة بالكامل؛ فهي تستند إلى الحقّ تعالى وعالم القدس المنزه عن المادّة، وهو ما صرّح به الحكيم السبزواري قدس سره في منظومته قائلاً:

والحقّ إن فاض من القدس الصور وإنمـــــا إعــــداده من الفكـــــر

ومقتضى التحقيق أن لا يكون تفكيرنا للوصول إلى النتائج هو السبب المولد، كما أنه ليس العلة الإيجاديّة التامّة كما ذهب المعتزلة، ولا هو عديم التأثير أصلاً للوصول إلى النتائج العلميّة، وإنما يؤدّي إلى ذلك بحكم العادة والتعاقب الاتفاقي للأمور، كما ذهب الأشاعرة، بل إنّ تأثير التفكير في حصول العلم حالة برزخيّة بين هذين الأمرين نطلق عليها اسم التأثير الإعدادي.

ب ــ وأحياناً لا يتوصّل الإنسان إلى الشيء عن طريق التفكير وتحصيل أجزائه وعوارضه أو علته أو دليله، وإنما يحصل للإنسان العلم به من دون إرادته واختياره، كمن يملك قوّة حدس أو إحساساً إدراكيّاً قويّاً؛ فتتضح له علة الشيء أو دليله تلقائيّاً، ومن دون إمعان النظر، وهذا الطريق لتحصيل العلوم والمعارف التي تعدّ من المواهب والنعم الإلهيّة التي ينعم الله بها على من يستحقها تسمّى إصطلاحاً بالكشف بمعناه

الأعم، الذي يشمل الوحي والإلهام أيضاً، وطبعاً هناك أسماء خاصّة مختلفة بلحاظ المراتب المختلفة لهذا الطريق.

4 ـ المبدأ الغيبي لإفاضة العلوم

في كلا طريقي تحصيل العلم والكشف يكون المفيض الحقيقي للعلوم والمعارف مبدأ غيبي وغير بشري، وفي الواقع فإنّ العلوم تأتي من الخارج إلى الداخل، وكما قال صدر المتألهين قدس سرّه: «فتكليم الله عباده عبارة عن إفاضة العلوم على نفوسهم بوجوهٍ متفاوتة كالوحي والإلهام والتعليم بواسطة الرسل والمعلمين»[1].

لابد من الالتفات إلى وجود الكثير من الحقائق الدقيقة هنا، فحينما يقال: في كلا الطريقين يتمّ ترشح العلوم من الخارج إلى الداخل، لا يعني ذلك اتحاد الواهب للعلم والموهوب له، واتحاد الفاعل والقابل في رتبةٍ واحدة؛ فإنه وإن كان يحصل هناك اتحاد بين الفاعل والقابل بنحو من الأنحاء في هذا المجال، ولكنه هو الاتحاد المصطلح عليه باتحاد الحقيقة والرقيقة، والمطلق والمقيّد، والمحيط والمحاط، والنصّ والحاشية، ويحمل هذان على بعضهما أحياناً بملاك هذه الوحدة، وإنّ حملهما على بعضهما لا يكون بالحمل الشائع، وعلى أساس اتحاد أمرين متكافئين في الرتبة، وإلا كان لازم ذلك أن يتحد فاعل

[1] الشواهد الربوبيّة، المشهد الخامس، الشاهد الأول، الإشراق السادس.

العلم وواهبه، والواجد له مع القابل والآخذ الذي هو فاقد للعلم بطبيعة الحال، وبذلك يكون هذا الاتحاد بينهما ووضعهما في رتبةٍ واحدةٍ مستلزماً لاجتماع النقيضين.

5 ـ التفاوت الجوهري بين طريق العلوم الكسبيّة والكشفية

وعلى كلّ حال فالفرق الأساسي القائم بين هذين الطريقين إلى العلم هو:

1 ـــ يتدرّج أسلوب التفكير في المراحل والمراتب العلميّة من الأسفل إلى الأعلى، أي أنّ الإنسان، وفقاً للترتيب المشار إليه في المسألة الأولى، يواجه المحسوسات في المرتبة الأولى، ثمّ يحصل له بها إدراكٌ حسيٌّ، ثمّ خياليٌّ، وبعد ذلك يدركه عقليّاً، ويصل من المحسوس الجزئي إلى المعقول الكلي، ولكن في الطريقة الثانية يكون الأمر معكوساً؛ حيث يدرك الإنسان بقلبه وعقله المعنى الغيبي الموجود في عالم العقل منذ البداية، ويدرك المراتب العليا بالكشف المعنوي، وفي المرتبة الثانية يتجلى له ذلك المعنى في مرتبة الخيال بالكشف الصوري، وبصورة تخيّلية متناسبة لذلك المعنى، ويدركها في قالب شكلي أو ألفاظ وعبارات صوتيّة مشابهة لما يُرى في عالم الرؤيا، ومن ثمّ تدرك وتتحقق بصورة محسوسة.

2 ـــ يسبح المفكر أثناء عملية التفكير في عباب أفكاره بحثاً عن الحقيقة، ومن هنا فإنه يسند المعلومات والمعارف الفكريّة إلى نفسه، فيقول: أنا أفكر ومن خلال تفكيري أصل

إلى هذه النتيجة، وطبعاً يمكن تطرّق الخطأ إلى هذا الأسلوب؛ لأنّ الفكر والمفاهيم الذهنيّة غير الحقيقة المبحوث عنها، وعليه فقد توافق المفاهيم تلك الحقائق وقد تخالفها، ولكن في طريقة الكشف لا يكون هناك حجاب بين المكاشف وبين الحقيقة المنكشفة، وبحسب المصطلح فإنه يدرك عين الحقائق بالعلم الحضوري، وإذا كان الكشف كشفاً حقيقيّاً، وليس تخيّلياً وظناً، فلا يمكن تطرّق الخطأ إليه؛ إذ في عمليّة الكشف تتجلى للمكاشف عين الحقيقة الخارجيّة وتحضر عنده، وليس صورتها الذهنيّة، ولا معنى للخطأ في الحقيقة الخارجيّة.

3 ـ في طريقة التفكير هناك مسرح لإعمال الإرادة والاختيار، حيث يسعى المفكر بإرادته للحصول على العلة أو الدليل، فيرتب معلوماته وينظمها للوصول إلى المجهول الذي يبتغي اكتشافه، ولكن في ما يتعلق بطريقة الكشف لا مسرح ولا دور للاختيار والإرادة، حيث تلقى العلوم إلى المكاشف بشكل قهري، دون أن يكون له إرادة حيالها، ولذلك فهو يسند ما تجلى له إلى أمرٍ غيبي، يتمثل في الحقّ تعالى أو أمرٍ خفيّ آخر. ولو فتح باب التفكير والإرادة والاختيار في طريقة الكشف، وكانت جميع المراحل، حتى مرحلة الخيال والمثال وتصوير المعنى العقلي وقولبتها في ألفاظٍ وعباراتٍ مثاليّة وخياليّة مخصوصة، تخضع لاختيار وتفكير المكاشف والموحى إليه والملهَم، لكان إسناده بذلك القالب المخصوص إلى الله، أو أيّ مبدأ غيبي آخر تناقضاً واضحاً؛ وذلك أنّ قوام طريق

الكشف والشهود بنوع من غياب الذات والفناء، وتنزل الحقيقة المكشوفة من دون الاستناد إلى التفكير، فتهبط من الأعلى إلى الأسفل، وأما في القولبة والتصوير الإرادي والاختياري فهناك مسرح للتفكير وإمعان النظر، ومن البديهيّ أنه كلما فتح الباب أمام التفكير والتدبّر، انحسر دور الكشف والشهود والوحي والإلهام، وكان الطريق معبّداً أمام الوقوع في الخطأ، وعاد الأمر إلى المفكر نفسه وأسند إليه، وقال بعض أهل المعرفة في هذا المجال: «إذا كان الحقّ هو المكلم عبده في سرّه بارتفاع الوسائط كان الفهم يستصحب كلامه فيكون عين الكلام منه، عين الفهم منك لا يتأخر، فإن تأخر فليس هو كلام الله»[1].

خلاصة القول: إنّ بين التفكير والكشف في تحصيل العلوم اختلاف عميق، فما يحصل من خلال التفكير، وإن كان يقود إلى نوعٍ من رفع الحجب عن وجه الحقيقة، إلا أنه في الوقت نفسه يسدل عليها حجباً أخرى، فلا تدرك الحقيقة إلا من طرفٍ، أما الكشف فيحصل من طريق صقل الروح ورفع الحجب الماديّة عن بصيرة القلب ، حتى تتجلى الحقيقة من تلقاء نفسها ومن دون اختيار المكاشف، وتنطبع من خلال العلم الحضوري على صفحة النفس بعد أن تنزل من سماء النفس، لتملأ وجود الإنسان الجدير بها تماماً من قمّة عقله إلى أخمص حسّه وخياله.

---

[1] الفتوحات المكيّة، الباب 166.

6 ـ الشعاع اللامتناهي لقدرة الوحي

خلاصة القول: إنّ القوّة التي تنزل الحقيقة والمعنى العقلي بالكشف المعنوي، وتميط اللثام بشأنها عن مرتبة عقل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، هي التي تنزلها بالكشف الصوري وتطبعها على صفحة عالم الخيال والمثال والحس، ولا يعني هذا أن تلك القوّة حاضرة في أدنى مراتب الوجود، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله هو الذي يعطيها مضمون الوحي وشكله، وأنه من دون ذلك لا يسع الناس فهم وإدراك ذلك المعنى العقلي السامي، فهل يعجز مبدأ الغيب ـ الذي يرسل الوحي، ويكشف للنبي المعنى والمضمون بالكشف المعنوي ـ عن تنزيل ذلك المعنى وإدخاله في وعاء خيال النبي بالكشف الصوري، وجعله قابلاً لفهم الجميع؟ وهل قدرة النبي في هذا المجال ـ وعلى مستوى الوحي ـ أكثر من قدرة مبدأ الوحي الغيبي؟ وهل يجهل ذلك المبدأ علم النبي وثقافة الناس الذين نزل الوحي لتكاملهم، خاصّة مع افتراض أنّ النبي كان قبل ذلك أميّاً لم يقرأ ولم يكتب؟

7 ـ أفضليّة النبي صلى الله عليه وآله على جبرائيل في قوس الصعود

ومن الطبيعي أن هذا الأمر لا يتنافى مع كون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، من حيث الرقي والتكامل الذي بلغه في قوس الصعود، قد نال مقاماً أسمى من مقام جبرائيل عليه السلام، حتى قال جبرائيل: «لو دنوت أنملة لاحترقت»؛ وذلك لتمتع

النبي والمكاشف من حيث تنوّع الحالات التي تطرأ عليه بمقام القبض والبسط، إذن فتلك القوّة الغيبيّة المحيطة بنظام الخلق يمكنها تنزيل ذلك المعنى العقلي بمهارة، وجعلها بمستوى فهم الجميع، وأن يكون ذلك النصّ، والمرتبة المنزلة التي تكون في متناول أيدي الناس، منصّة لانطلاق التأويل وبلوغ باطن ذلك المتن ومضمونه العميق، فيطوى قوس صعود الوحي من خلال ذلك لمن هو بمنزلة الأولياء والصالحين ممن يكون على مستوى التأويل واجتياز ظاهر النصّ إلى باطنه.

8 ـ الوحي بين دوري: الفاعل والقابل

وبشكل عام فإنّ المكاشف وإن كان يجني ثمار ما يزرعه، وكما قال بعض: «فمن شجرة نفسه جنى ثمرة غرسه»[1]، ولكن بالنظر إلى إطلاق الحقّ تعالى وعدم محدوديّة وجوده، وكون نفس المكاشف محدوداً ومقيّداً ومتناهياً؛ فالمحوريّة والدور الأساس الذي يكون لكلّ مكاشف وشاهد وصاحب وحي وإلهام في تقبّل الحقيقة إنما هو دور القابل، وليس دور الفاعل والمؤثر، أو كلا الدورين في رتبة واحدة، حتى يلزم منه، إذا اعتبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشراً، أن يكون الكتاب الذي أنزل عليه بشريّاً أيضاً، وأنه صلى الله عليه وآله كان مؤثراً في تصويره وإضفاء صبغته عليه، أو الانفعال بحالاته النفسيّة من الفرح والحزن؛ فينعكس ذلك على صياغة معناه، بل على العكس، فإنّ ذلك المعنى

---

(1) فصوص الحكم، فصّ الشيء.

والصورة الحاصلة في عالم العقل وخيال المكاشف وصاحب الوحي والإلهام هو الذي يجعله فرحاً أو حزيناً بنحوٍ مناسب للصورة والمعنى، وأساساً فإنّ الحالات النفسيّة التي تشغل النفس وتصيبها بالغفلة، كالفرح لشيءٍ أو الحزن بسببه ـ من الصفات الإضافيّة ذات الطرفين؛ فلابدّ أن يكون هناك شيءٌ لتفرح النفس أو تحزن بسببه ـ لا تتناسب وحالة الكشف، خاصّة إذا كان تامّاً ونبويّاً، لتلعب تلك الحالة دوراً في التأثير على تلك الحقيقة المكتسبة، وإن كان من الممكن أن يكون موضوع تلك الحقيقة المنكشفة شاغلاً للذهن قبل عروض حالة الوحي والانكشاف، أو ظهور الفرح والحزن بسببها.

ومجرّد كون الوحي أمراً حادثاً لا يسوّغ ـ انطلاقاً من قاعدة «كلّ حادثٍ مسبوق بالمادّة والمدّة» ـ القول بضرورة أن يكون الوحي مسبوقاً بالمادة والمدّة، وأن يتأثر الوحي بسبب ما يحيط بالموحى إليه من الظروف الماديّة؛ وذلك لأنّ الموحي هو الله القديم الأزلي، والوحي، وإن كان متوقفاً في تحققه الخارجي على الموحى إليه أيضاً، وأنه مسبوق في نظام الوجود بالمادّة والمدّة، أي بوجود آبائه وأجداده الطاهرين، إلا أنّ الوحي بما هو ظاهرة إلهيّة مجردة يلقى من الأعلى إلى الأسفل، ولا يكون مصبوغاً بصبغةٍ ماديّة أبداً.

9 ـ تجرّد الوحي وشروطه الماديّة

ينزل الوحي بطبيعة الحال منسجماً مع الواقع الحضاري للمجتمع، وموافقاً للغة التي يتخاطب بها أفراده، فيكون تابعاً لها، إلا أنّ هذه التبعيّة تبعيّة شكليّة وظاهريّة، وليست

جوهريّة، على النحو الذي أشير إليه، وربما كان هذا هو المراد من التبعيّة المذكورة، وإنّ هذه التبعيّة من قبيل تبعيّة العلم للمعلوم؛ فالعلم بالشيء كما هو مطابق له، إلا أنّ خصائص المعلوم ـ من قبيل الجوهر والعرض والثابت والمتغيّر ـ لا تؤدّي إلى أن يتحوّل العلم إلى جوهر أو عرض أو ثابت أو متغيّر؛ وعليه فإن الثقافة واللغة، وإن كانت تؤطر الوحي بأطر شكلية، إلا أنها لا تقيّد محتواه بنطاقها الضيّق، وإلا لما كان بإمكان الوحي أن يسهم في توسيع أفق تلك الثقافة ورقيّها العلمي، ولما حدث أيّ تكاملٍ في الأمم التي بعث فيها الأنبياء^، وقد كانت قبل البعثة ترسف في أبشع أغلال الجهل، والحال أنّ الهدف من الوحي هو الارتقاء العلمي والثقافي الذي هو بمنزلة العقل الفاعل للمجتمع، وهذا ما يشهد له الواقع وتدعمه التجارب.

علاوة على ذلك فإنّ الأمر إذا كان على هذه الشاكلة فكيف كان يمكن التأويل الذي هو عكس التنزيل، فهو انتقال من ظاهر الوحي ومتنه إلى باطنه وعمق معناه؟ إن دقة التعبير بـ (الإنزال) و(التنزيل) و(النزول) ومشتقاتها بالنسبة إلى متن الوحي تكمن في عدم التأطر في هذا الإطار الضيّق، ومن دون أن يطرأ عليه أيّ تغيير.

إذاً فالخلاصة أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد ترعرع في فضاء الوحي والعلوم الغيبيّة، وكان قابلاً للوحي ومتأثراً ومنفعلاً به، وليس فاعلاً ومنتجاً له، وكما تقدّم فإنّ لازم القول باتحاد الفاعل والقابل واعتبارهما شيئاً واحداً في الرتبة محذور عقلي، وهو

القول باجتماع النقيضين، وليس هناك محذور أخلاقي، كاتباع الوحي للهوى؛ ليتمّ رفعه بمثل القول بالعصمة ونحوها.

10 ـ عدم قبول العلم الحضوري للخطأ خلافاً للعلم الحصولي

لا فرق في هذا الأمر بين المسائل الدينيّة البحتة، مثل: صفات الله، والحياة بعد الموت، وبين مسائل هذا العالم والمجتمع الإنساني؛ إذ في الكشف والوحي هناك نوع من اجتياز أفق عالم المادة والهيمنة عليه، والإشراف بالعلم الحضوري على الزمان والمكان، ولا يحتمل الخطأ في العلم الحضوري؛ لأنّ هذا الاحتمال مشروط بحصول اثنينيّة لا توجد إلا في العلم الحصولي والمفهومي: إحداهما: الصورة والمفهوم الذهني؛ والثانية: حقيقة وواقعيّة تحكي عنها تلك الصورة وذلك المفهوم، فإن تطابق الحاكي والمحكي كانت تلك الصورة وذلك المفهوم صادقاً وحقاً، وإلا كان كاذباً وباطلاً، ومثل هذه الأثنينيّة لا وجود لها في العلم الحضوري، فانكشاف الأمر دائر بين النفي والإثبات، أي أن الكشف إما موجود أو غير موجود، فإن وجد لم يتطرق إليه الخطأ والاشتباه، وإن الانكشافات التي يقال: إنها باطلة وغير صحيحة يراد منه عدم وجود الانكشاف أساساً، وأنه كان مجرّد إدعاء أو توهّم أو تخيّل للانكشاف، أو أنه كان كشفاً ناقصاً وغير مكتمل، وإلا فإنّ الانكشاف ـ بأي مقدارٍ تحقق ـ يطابق الواقع بذلك المقدار على نحوٍ تلقائي، ولا يعقل الخطأ بالنسبة إلى الوحي النازل على من ثبتت نبوّته في ما يخبر عنه من الأمور الاجتماعيّة

والأرضيّة؛ إذ لو أمكن الخطأ على ما يكشف عن النبوّة ممّا يُعدّ معياراً لصحّة وبطلان سائر الانكشافات فكيف يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، وكيف يكون كشفه عن المسائل الدينيّة البحتة، مثل: صفات الله، وهي أعمق وأدق، غير قابل للخطأ، ولا يكون كذلك بالنسبة إلى الانكشافات الدنيويّة؟ فأين مكمن الفرق بينهما، حتى تكون لأحدهما ضمانة وعصمة من الخطأ دون الآخر؟!

11 ـ عدم إمكان الخطأ في مجال الوحي والرسالة

أجل، لو تحدّث النبي عن أمر لا صلة له بالغيب، وكان خارجاً عن رقعة الرسالة والهداية، فهناك من ذهب إلى احتمال تطرّق الخطأ إليه، وهذا ما قصده بعض العلماء والعرفاء الذين أجازوا الخطأ على الأنبياء والمعصومين عليهم السلام في الأمور الدنيويّة، إلا أنّ هذا يخرج عن كونه وحياً أو إلهاماً، ويكون أجنبيّاً عن بحثنا؛ فالنبيّ والمعصوم إذا حصل على شيءٍ من طريق الغيب والوحي فهو علمٌ أسمى من العلوم البشريّة، ولا يقبل الخطأ، والمراد بالخطأ هو الخطأ الواقعي، بمعنى عدم مطابقة المراد الجدّي للواقع، لا ما يعدّه البشر خطأً، وهو ما يصطلح عليه حاليّاً بـ (تعارض العلم والدين)، والذي يحتاج بدوره إلى مساحةٍ أخرى من البحث في طول هذه المباحث. ونحن نعتقد أنّ الذي يمكنه الاتصال بما وراء الطبيعة، والحصول على العلوم والمعارف الدينيّة السّامية، يمكنه الحصول على العلوم والمعارف الدنيويّة من نفس المصدر بطريق الأولويّة؛ وذلك لعدم

وجود حدّ بين هذين النوعين من العلوم والمعارف ليقال: إنّ النبي والمعصوم إنما يتوصّل إلى النوع الأول دون الثاني، وإن كان منصب النبوّة والرسالة يستدعي أن يوجّه النبي| الناس برؤية ملكوتيّة نحو الغيب، ويحررهم من ربقة التعلقات الماديّة والدنيويّة، فلا ينصبّ همّه على بيان شؤون هذا العالم وإعماره، خصوصاً وأنّ الناس بلحاظ توجههم إلى أمور دنياهم وتعلقهم بالماديات، وميلهم إلى تلبية حاجاتهم ورغباتهم المادية، يهتمون بها، من دون حاجة إلى توجيهٍ من النبيّ في هذه الشؤون.

12 ـ اختلاف الخطأ الواقعي عن الخطأ في الفهم

بالالتفات إلى ما قيل فإننا نذهب إلى استحالة الخطأ الواقعي في الوحي، حتى بالنسبة إلى الموارد المحدودة المرتبطة بشأن هذا العالم، وأما ذلك الجزء الذي يعدّ خطأً من وجهة نظر البشر، مثل: (السماوات السبع)، التي طبّقها بعض المفسرين السابقين على النظريّات القائمة على هيئة (بطليموس)، فهي في الحقيقة خطأ في الفهم، وتفسير خاطئ لها في مقام الكشف عن المراد الجدّي للمتكلم حدث بعد عصر النزول، وليس خطأً واقعاً في الوحي؛ ليقال: إنّ إحدى الطرق المتنوّعة لدفع هذا الإشكال والتخلص منه هو القول بأنّ المعنى من الله، واللفظ من النبي صلى الله عليه وآله، إلى غير ذلك من الحلول الأخرى التي لا تقلّ فساداً عن القول بخطأ الوحي.

13 ـ من ضمان تطابق الحقيقة والصورة

قد يقال: صحيحٌ أنّ الكشف والشهود علم حضوري بالحقيقة، ولا يمكن فيه الخطأ، ولكن لبّ الكلام أنه ما هي الضمانة لكون العلم الحصولي، والصورة والمعنى الذهني، الذي ينطبع في ذهن المكاشف بعد حالة الوحي، يطابق العلم الحضوري؟ وبعبارةٍ أخرى: ما الذي يضمن صحة تحوّل العلم الحضوري إلى علم حصولي ومطابقتها لبعضها، والتقاط الذهن للصورة الصحيحة عن الحقيقة المشهودة والعصمة في بيان معلوماته؟

هل ضمان التطابق في مقام الثبوت أو الإثبات؟

نقول في الإجابة عن هذا التساؤل: ما هو المراد من هذهِ الضمانة؟ هل المراد منها الضمان بلحاظ عالم الثبوت والواقع ونفس الأمر؟ أي أن السؤال في الحقيقة هو عن العلة والسبب في عصمته عن الخطأ، سواء أكانت تلك العلة وذلك السبب معلوماً لنا أو خافياً علينا؛ أو أن المراد من تلك الضمانة بلحاظ عالم الإثبات والعلم، وبالنظر إلى العلم بعدم خطأ المكاشف والموحى إليه في حكايته للحقيقة المنكشفة؟ أي أن السؤال عن ماهية ذلك الأمر الذي ندرك بواسطته عدم اشتباه وخطأ ذلك الشخص في ما أخبر به وحكاه؟ وبعبارة أخرى: هل السؤال عن علة ذلك الضمان أو عن دليله؟

إن كان المراد منه هو البحث عن علة الضمان بحسب عالم الثبوت والواقع، فجوابه كما تقدمت إليه الإشارة سابقاً هو أن المبدأ الغيبي، الذي يزيح الحجب من خلال كشفه

المعنوي والصوري عن الحقيقة، هو الذي يلقي مفهوماً وصورة مطابقة لتلك الحقيقة على ذهن المبدأ القابل، وهو الشخص المكاشف والموحى إليه، ويبقيه عنده، قال تعالى {سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى} [الأعلى:6]، وفي الحقيقة إن ذلك المفهوم والصورة الذهنية هي الحقيقة المنكشفة من قبل المبدأ الغيبي، والتي ضعفت بسبب ارتفاع حالة الكشف والشهود، ورجوع المكاشف إلى حالته الاعتيادية، وفقدت أثرها الغيبي والخارجي المتحقق حالة الكشف، وتحولت إلى علم حصولي وصورة ذهنية ومفهوم، وهذا أمر وجداني يدركه المكاشف تلقائيّاً، كالأمور التي نراها في المنام؛ فنشعر بسعادة أو حزن، وتبقى في أذهاننا في اليقظة عنها صورة غير ذات أثر، ولكنها عين تلك الحقيقة المنكشفة لنا في المنام بالعلم الحضوري، أو الأشياء التي نشاهدها بأعيننا، ثم ندركها بعد إغماض أعيننا من خلال تصورها واستحضار صورها من مخزونات ذهننا وخيالنا، فالذي يتمّ إدراكه في الحالتين أمرٌ واحد بحسب الحقيقة، سوى أنّ الأوّل بسبب الحضور يكون عينيّاً وذا أثر، في حين يكون الآخر ذهنيّاً وعديم التأثير بسبب غيبته.

وعليه فإنّ الحقيقة المكتسبة بالكشف والصورة الذهنيّة المتحدة معها تكون عند مقام النبوّة الشامخ والعقل الكلي محفوظة من أن تطالها يد الوهم والخيال، وتكون مطابقة للواقع.

وللتوضيح أكثر حول هذه المسألة ينبغي الرجوع إلى مباحث العلم والوجود الذهني في كتب الفلسفة.

وإن كان المراد من ذلك السؤال البحث عن الدليل وسبيل العلم بعدم خطأ المكاشف في الحكاية عن الحقيقة التي يدعي أنه حصل عليها بالعلم الحضوري فجوابه: أما بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله والمعصوم عليه السلام المبحوث عنه في المقام فالدليل الذي أثبت عصمته هو الدليل الذي يثبت عدم خطئه في الحكاية عن الحقيقة المنكشفة له، وصدقه في الإخبار عنها.

14 ـ حقيقة الوحي في القرآن الكريم

بعد أن قدمنا تحليلاً مجملاً عن معنى الوحي وحقيقته نشير إلى بعض الآيات والروايات ذات الصلة بهذا الموضوع، فنقول: إن كل من يتدبر بدقة في أسلوب القرآن الكريم يدرك أنه بألفاظه وتعابيره وحي وكلام الله النازل من ناحيته، وأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو المتلقي للوحي والمأمور بإبلاغه.

ونظراً إلى عصمته وأمانته التي تمّ أثباتها في محله فإنّه صلى الله عليه وآله ليس له في البين من دور سوى الوساطة في إبلاغ كلام الله، لا أن تكون ألفاظ القرآن من صنعه صلى الله عليه وآله ، وإليك بعض آيات القرآن الكريم:

أ) عدم إطلاق القرآن على صرف معانيه

1 ــ يقول تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: 192ـ195]، والمراد بالضمير في قوله: إنه وبه هو القرآن، وقوله: {بِلِسَانٍ} متعلق بـ {نَزَلَ}، والقرآن اسمٌ للألفاظ الخاصة التي تتضمّن المعاني المخصوصة، ولا يقتصر القرآن على خصوص المعاني. ومما يؤيّد ذلك ويؤكده، ونزل على وزانه، قوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل:102]، وقوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[يوسف:2]، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}[الرعد:37]، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا }[طه:113]، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى:7]، وقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الزخرف:3]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[الزمر:27ـ28].

وتدلّ هذه الآيات أنّ القرآن بقالبه وألفاظه العربيّة إنما هو وحيٌ من الله نزل على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

2 ــ يقول تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}[القيامة: 18].

إنّ المخاطب في هذه الآية بقوله {فَاتَّبِعْ} هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي تدلّ بوضوح على أنّ الوحي والقرآن قد قرئ على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والقراءة من شؤون الألفاظ دون المعاني.

ب) عدم إطلاق التلاوة على صرف معاني القرآن

3 ــ يقول تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} [آل عمران: 108؛ الجاثية: 6]

والتلاوة هي القراءة المتتالية والمتعاقبة، وقد أمر بها بالتفصيل، وقد وردت من عالم العقل والعقل البسيط والإجمالي للنبي صلى الله عليه وآله إلى فضاء خياله وعالم مثاله، فتليت هناك بالتفصيل، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}.

4 ـ يقول تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: 3ـ5].

وهذه الآيات صريحة في أنّ ما يبرزه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن الله تعالى في قالب الألفاظ والعبارات ليس سوى الوحي الذي أُلقيَ إليه، وقد علمه إياه جبرائيل، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وآله أي دور في صبّ الوحي بقالبه اللفظي.

جـ) نسبة إنزال القرآن إلى الله دون النبي صلى الله عليه وآله

5 ــ يقول تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}[الأنعام:19].

ويدلّ اسم الإشارة على أنّ هذا القرآن، الذي بلغ الناس، لم يكن لإرادة النبي صلى الله عليه وآله واختياره أي دخل في صياغته وتصويره.

6 ــ يقول تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[المائدة:67].

تدلّ هذه الآية على أنّ الذي نزل من قبل الله على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هو الذي يجب أن يبلغه إلى الناس، لا ذلك الذي صاغه النبي صلى الله عليه وآله وهبط بمستواه ليناسب فهم الناس.

7 ــ يقول تعالى: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}[طه:2]

8 ــ يقول تعالى: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً }[الإسراء: 106]

9 ــ يقول تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}[مريم: 97]

10 ــ يقول تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[العلق:1]

11 ــ يقول تعالى: {سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى}[الأعلى:6]

12 ــ يقول تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا}[المزمل: 5]

13 ــ يقول تعالى: {حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الزخرف: 1ـ3]

هذه بعض الآيات التي وردت في هذا السياق، وبشكل عام فإنّ الآيات التي جاءت بلفظ (نزل) تدل على أن إنزال القرآن ليكون بمستوى فهم الناس لم يكن من قبل النبي صلى الله عليه وآله، وإنما هو أمر خارج عن حدود اختياراته، وقد تكفلت به جهة غيبيّة، ولذلك لا يمكن العثور على آيةٍ واحدةٍ تنسب إنزال القرآن للناس إلى النبي صلى الله عليه وآله أوعرفته كفاعل للوحي ومصدرٍ له.

ولو فرضنا جدلاً أنّ ألفاظ القرآن كانت من صنع النبي وصياغته، ومع ذلك قرأها للناس على أنها من قبل الله، يكون ـ والعياذ ـ بالله كاذباً؛ حيث نسب فعله إلى الله تعالى.

د) دلالة الآيات المصدّرة بلفظ {قُلْ} على المدَّعى

وهكذا هي الآيات المصدّرة بأمر {قُلْ}، حيث تأمر النبي صلى الله عليه وآله بإخبار الناس بما يُذكر بعدها، فإنها تدلّ على عدم تدخل النبي صلى الله عليه وآله في صياغة قوالبها اللفظيّة؛ إذ ليس من المنطقي أن يصيغ النبي صلى الله عليه وآله العبارة ثمّ يأمر نفسه بقولها.

ولو كان النبي صلى الله عليه وآله هو الذي صاغ ألفاظ الوحي، لكي يجعلها مناسبة لفهم الناس، فما معنى الحروف المقطعة التي تفتتح بها بعض السور والتي لم يرد حتى الآن تفسير قاطع بشأنها؟ فإذا قلنا بأن للألفاظ مبدأ غيبي أمكن القول بأنّ هذه الحروف من أسرار الله، وأنها رموز بينه وبين نبيّه، وفي غير هذه الصورة تبقى هذه الحروف مبهمة.

15 ـ حقيقة الوحي في السنّة الشريفة

وأما الروايات الواردة في هذا الموضوع فهي كالآتي:

1 ـــ عن الإمام الرضا عليه السلام، في الجواب عن الفرق بين الرسول والنبي والإمام، أنه قال: «إنّ الرسول الذي ينزل عليه جبرائيل، فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي،

وربما رأى في منامه، نحو؛ رؤيا إبراهيم عليه السلام: والنبي ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع؛ والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص»[1].

وقريب من هذا المضمون الرواية الأولى والثالثة والرابعة من المصدر نفسه.

2 ـ وروي أنه سأل الحارث بن هشام رسولَ الله صلى الله عليه وآله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّ عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال؛ وأحياناً يتمثل ليّ الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»[1].

ويتضح من هذه الروايات ونظائرها أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا يتدخل في صياغة القوالب اللفظيّة للوحي، بل إن الألفاظ كالمعاني تصل إليه عن طريق مبدأ غيبيّ، وأن القول بأنّ النبيّ فاعل للوحي يستلزم، مضافاً إلى ما تقدم من محذور اجتماع النقيضين، محذور التقليل من شأن وقداسة الوحي، وذلك أنّ النبي وإن كان قد بلغ مقام {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}، إلا أنه لم يبلغ المقام المطلق للحقّ تعالى، ولم يصل إلى مرتبة وجوده اللامتناهي، ولن ينالها أبداً، وطبعاً لا تكون للوحي المستند إليه تلك القداسة والنزاهة وعلو المرتبة الثابتة للوحي المستند إلى الله تعالى، ومن هنا كان أصحاب

---

[1] أصول الكافي 1: 176، كتاب الحجّة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدّث، الحديث 2.

[1] صحيح البخاري، بدء الوحي، ح2؛ صحيح مسلم، قريب من هذا المعنى، باب عرق النبي في البرد وحين يأتيه الوحي 4: 1816، الحديث87.

النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يسألونه أحياناً: «هل ما تقوله هو عن الله أو من عندك؟»، فإن قال لهم: بل هو من عند الله وأنه وحيٌ كانوا يذعنون له طائعين، وإلا وجدوا في الأمر سعة لأنفسهم، وأشركوا النبي في آرائهم.

الوحي، مفهومه وحدوده

مناقشة لانحرافات سروش

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي*

ترجمة: حسن مطر

نظرية سروش ومعارضة النصوص الدينية

إن هذا النوع من الآراء لا ينسجم ـ قطعاً ـ مع النصوص الإسلامية، وخاصة القرآن الكريم منها، بل ويُعد جرأة كبيرة على القرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وتشكيكاً بالقرآن وقدسيته، سواء علم بذلك صاحب هذا الرأي أو لم يعلم، وهنا ألفت انتباه القارئ الكريم إلى الأمور الضرورية الآتية:

1 ـ إن مصدر هذا التفكير المنحرف أمران:

---

* مرجع ديني، ومتكلم معاصر في قم المقدسة.

أولاً: الغوص في الأفكار الصوفية المفرطة، والتأثر بمقالة الصوفيين في مسألة (الحلول والاتحاد)، كما يلوح من العبارات المتقدمة، حيث يظهرون وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفعماً بذات الله، وأمثال ذلك.

الثاني: العجز عن تفسير بعض آيات القرآن الكريم، كالآيات التي تتحدث عن السماوات السبع، ورجوم الشياطين، وما شابه ذلك، وتصوّر عدم انسجامها مع العلوم الحديثة .

وهذا النوع من التفكير شبيه بمن يرى زاوية جدار لقصر مهيب منحرفة، وذلك بسبب حول في عينيه، فيعمد إلى معالجة ذلك بتقويض القصر من أسسه ودعائمه!

2 ــ إن القول بعدم كون القرآن الكريم كلام الله مباشرة ــ والعياذ بالله ــ تكذيب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك:

أولاً: هناك عشر آيات من القرآن تقول: {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [الواقعة: 80]، و{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[الزمر:1]، إلى غيرهما من الآيات.

وإذا كان القرآن منبثقاً من ذات النبي صلى الله عليه وآله فكيف ينسبه إلى الله صراحة، ألا يعدّ ذلك تكذيباً لرسول الله صلى الله عليه وآله؟!

وهل مجرد كون النبي مخلوقاً لله يسوّغ له التعبير بـ {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}؟ وإذا كان الأمر كذلك فأي مانع يمنعنا من نسبة جميع أشعار ابن الفارض والخواجة حافظ الشيرازي وسعدي والمولوي إلى الله تعالى، حيث إن الله خلقهم أيضاً! وهل يستحيل على الله أن ينزل الوحي على نبيه مباشرة؟

وثانياً: هناك العشرات من الآيات التي تصرّح قائلة: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ }، أو {ألر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، أو قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}.

فهل تنسجم هذه الآيات مع كون القرآن منبثقاً عن النبي، وهل يعقل أن يصدر النبي الأوامر لنفسه أو يهدد نفسه؟

وثالثاً: ورد في أكثر من ثلاثمائة موضع من القرآن إصدار الأمر إلى النبي صلى الله عليه وآله بعبارة: {قُلْ}، فهل يصح للنبي توجيه الخطاب والأوامر إلى نفسه بمثل هذا التعبير؟! إن أدنى تأمّل في آيات القرآن لا يبقي مجالاً للشك في كون القرآن هو كلام الله الذي أنزله على رسوله، لا أنه من بنات أفكار النبي، كما أن النبي ليس مجرد لاقطٍ صوتي، بل هو شخصية عظيمة استحقت أن تحمل الوحي الإلهي إلى جميع أفراد الإنسانية.

ورابعاً: كثيراً ما كان يحدث أن يتأخر الوحي؛ فيقع النبي صلى الله عليه وآله تحت ضغوط الأعداء، كما في حادث تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، حيث قال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} انتظاراً للوحي، وها هو الوحي ينزل في الوقت الذي تقرره السماء {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}، فهل كان النبي في هذا الموقف ينتظر أن يوحي لنفسه؟ إن هذا الرأي أقرب إلى المزحة منه إلى الحقيقة!

وخامساً: نجد أن الله تعالى يأمر النبي صلى الله عليه وآله بدعوة المخالفين إلى المباهلة إذا لم ينصاعوا إلى الحق، وذلك في قوله: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}، فهل يأمر النبي نفسه بالمباهلة. وأصرح من ذلك أن جماعة اقترحت على النبي أن يغيّر القرآن ولا ينتقد أصنامها، فنزل قوله تعالى: { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

وعليه فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن نؤمن بمضمون هذه الآيات الواضح والصريح في نسبة القرآن إلى الله مباشرة، أو أن نقف في صف مشركي مكة ــ والعياذ بالله ــ حيث قالوا: {افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}! وحاشا نبينا أن يفتري على الله وهو الأمين المؤتمن.

3 ــ إن التعبير القبيح بكون فصاحة القرآن تتأثر بحالات النبي المتغيرة، فحينما يكون النبي في أرقى مستوياته الروحية تتسم آيات القرآن بأعلى درجات الفصاحة، وبعكس ذلك إذا تدنى المستوى الروحي يهبط مستوى الفصاحة، يضع الكثير من علامات الاستفهام على قدسية القرآن، وينزله إلى مستوى القصائد، التي تتقلب بين القوة والضعف؛ تبعاً لمزاج الشاعر، فحينما يكون مزاجه رائقاً ينشد أفضل الأشعار، وبعكسها إذا كان مزاجه على غير ما يرام فيكون شعره ضعيفاً أو ركيكاً !

4 ــ وأقبح من ذلك ما يقال من تأثر القرآن بالحياة العربية في بيان الأمور المتعلقة بالمعاد ونعيم الجنة، ممثلاً لذلك بقوله تعالى: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، حيث لا واقعية لها إلا في مخيلة النبي صلى الله عليه وآله بسبب تأثره بطريقة الحياة القبلية والعشائرية!

في حين أن هذه التشبيهات القرآنية إنما هي لتقريب الأذهان، وليس من الضرورة أن تكون خيام الجنة هي بعينها خيام سكان البوادي، ولست أدري أيّة قيمة وأيّ اعتبار يبقى للقرآن من خلال هذا الكلام، ولماذا يسمح هؤلاء لأنفسهم بأن يجروا على ألسنتهم كل ما يحلو لهم دون التدبر في نتائج ما يقولون*؟ !

---

* بل إنّ هذا الاستدلال من قِبل د. سروش هو من أوهى الاستدلالات لأنه يقوم على قياس مستنبط العلة بحسب تعبير المناطقة، أي أنه يربط بين التشبيه في الآية وما بين الواقع ويستنتج منه الإنطباق ومن ثمّ وحدة الصدور! وهذا كله يجري بلا برهان أو دليل سوى التشابه بأحد وجوهه، وهو تشابه الصور، وهو استدلال يقوم على الذائقة والاستحسان الشخصي مما يضع علامة استفهام على مراد د. سروش! وهو استدلال يمكن نفيه بأحد أبسط الطرق وهو بفرض الخلاف، بل الاستدلال بفرض الخلاف أمتن وأقوى. [المُعد]

5 ــ والأقبح من كل ذلك ويدعو إلى الاستياء نسبة الخطأ إلى القرآن الكريم والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في ما يتعلق بالعلوم غير الدينية، حيث يقال: بما أن علم النبي في المسائل الطبيعية لم يكن ليتجاوز علم معاصريه، فعليه يمكن أن تتصف العلوم التي تحدّث عنها القرآن بالخطأ بعد أن يثبت تطور العلوم التجريبية خلافها .

إذا احتملنا ـ والعياذ بالله ـ الخطأ، ولو في آية واحدة من القرآن الكريم، فهل يمكن لشخص أن يثق بسائر الآيات الأخرى، وعليه كيف يسمح من يدعي الإسلام لنفسه أن يتجرأ على القرآن بمثل هذه النسبة، دون تدبّر في آثارها المشؤومة*؟

يؤكد كبار علماء الشيعة على عصمة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من الأخطاء حتى قبل النبوّة والإمامة، كي لا تزول ثقة الناس باحتمال صدور الخطأ عنهم، وعليه يمكنك تخيل مدى الاختلاف بين هذين المنهجين.

بل الأمر على العكس من ذلك، فإننا لا نجد القرآن متخلفاً عن العلوم، وإنما نجده في الكثير من الآيات متقدّماً على علوم عصره، فـ:

أولاً: قال تعالى: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}

---

* نحن هنا أمام خيارين: إما أن نقول بأن هذا القرآن هو تنزيل الله سبحانه وهو قول المسلمين، وإما أن نقول أنه تعبير النبي صلى الله عليه وآله بفهمه ولغته للوحي النازل من الله سبحانه — والعياذ بالله — كما يذهب لذلك د. سروش، وفي كلا الحالتين في حالة قولنا بخطأ آية من القرآن الكريم تكون النتيجة خطأً صادرًا من الله —والعياذ بالله—، لأن اللغة صيغة للتعبير عن الحقيقة، وإذا كانت الحقيقة خاطئة فإن التعبير عنها يكون خاطئًا أيضًا وحتى وإن قلنا — بالفرض— بخطأ الوحي فإن هذا يستلزم خطأ الاختيار من الله سبحانه وفي كل الأحوال لازم هذا القول الطعن بالله سبحانه وتعالى. [المُعد]

وثانياً: من الجدير الالتفات إلى أنه حين نزول القرآن كانت هيئة بطليموس هي السائدة في الأوساط العلمية آنذاك، والتي تقول: إن (الشمس) و(القمر) ثابتان في كبد السماء، في حين أثبت القرآن الكريم وفقاً للآية 40 من سورة (يس) أن الشمس والقمر يجريان في السماء، وليسا بثابتين: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ولم تثبت هذه الحقيقة إلا بعد مضي ألف سنة .

مضافاً إلى أن هيئة بطليموس ترى الأرض مركز العالم، وأنها ثابتة وغير متحركة، في حين أن القرآن يرى لها حركة سريعة وصامتة شبيهة بحركة السحب، حيث يقول: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}. والذين يتصورون أن هذه الآية تتحدث عن أمور ستقع قبيل يوم القيامة مخطئون تماماً؛ لأن الآية تتحدث عن نظم وإتقان الكون، دون اضطرابه وزعزعته .

إن حركة الأرض لم تثبت إلا بعد ألف سنة من نزول القرآن، وعليه كيف يجيز البعض لنفسه، بمجرد تصور عدم انسجام بعض الآيات القرآنية مع ما توصل إليه العلم الحديث ـ في حين أن الأمر ليس كذلك، كما أثبتاه في التفسير ـ فيقول بكل وقاحة وصلف بخطأ القرآن والنبي وهو القرآن الذي يصفه النبي بقوله: «لا تحصى عجائبه،

ولا تبلى غرائبه»، ووصفه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة بقوله: «فيه ربيع القلب وينابيع العلم.»

إننا نشهد حالياً هجمة شرسة من العالم الغربي موجّهة ضد القرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، عمادها التشهير والافتراء والشتائم، فما هو السبب الذي يدعو بعض المنتسبين إلى الإسلام لتكرار أقوال أعداء الإسلام بهدف التشكيك بقداسة النبي والقرآن؟ !

وعلى كل حال يجب عليه التوبة من مقاله، وأن يجدّ في التعويض عن زلته، ونسأل الله الهداية وحسن العاقبة للجميع.

نظرية وحيانية ألفاظ القرآن الكريم

أدلّة وبراهين

د. إبراهيم كلانتري*

مدخل

إنّ ألفاظ القرآن الكريم من بين الأمور المهمّة التي تناولها المفسرون والمختصّون في مجال العلوم القرآنيّة منذ القدم بالبحث والتحقيق، ولا يزال البحث قائماً حولها إلى يومنا هذا. والسؤال هو: هل الألفاظ القرآنية قد أنزلت على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من قبل الله تعالى، كما هو الحال بالنسبة إلى محتواها ومضمونها؟ أو أن الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحياً ليس سوى المحتوى القرآني، أما القالب اللفظي فإنما صاغه شخصُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو جبرائيل عليه السلام ؟

* أستاذ جامعي، وعضو الهيئة العلمية في جامعة الزهراء عليها السلام في طهران.

وقبل الدخول في بيان الرؤى المطروحة في هذه المسألة، ونقدها وبحثها، نذكر أولاً الافتراضات المحتملة فيها، ومن ثمّ نعمد إلى بحثها وتحليلها. ويبدو أن بالإمكان تصوّر خمسة فروض حول هذه المسألة، وذلك على النحو الآتي:

1 ــ إنّ ما نزل على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مجرد المعاني ومعارف القرآن السماوية، وقد قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصياغة تلك المعاني والمعارف، وصبّها في قوالبها اللفظيّة، ورتبها في سياق الكلمات والجمل، وقام بنقلها إلى الناس[1].

2 ـ إنّ معاني القرآن ومعارفهِ السّامية نزلت من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أنّ جبرائيل الأمين عليه السلام قام بصياغة ألفاظها وكلماتها، ومن ثمّ أنزلها على قلب رسول الله[2] صلى الله عليه وآله وسلم.

3 ـ إنّ ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس سوى الألفاظ والكلمات والجمل، وقد توصّل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من خلالها إلى معانيها ومعارفها السّامية[3].

---

(1) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن 15: 317، حيث ذكر هذا الافتراض بوصفه واحداً من الافتراضات المطروحة في هذا البحث.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن 1: 291، حيث ذكر هذا الافتراض، ولم يذهب إليه.

(3) محمد تقي مصباح اليزدي، قرآن شناسى 1: 93، حيث اكتفى بمجرّد ذكر هذا الافتراض.

4 ــ إنّ الألفاظ والمعاني القرآنيّة معاً هي من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما إسناد القرآن إلى الله تعالى إلا لأنه قد أعدّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ليكون منبعاً لصدور مثل هذه الألفاظ والمعاني[1].

5 ـ إن القرآن بمجموعه من الألفاظ والكلمات والجمل والمعاني والمعارف السامية هو من عند الله تعالى، وقد تلقاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأجمعها من الله عزوجل، ونقلها إلى الناس بتمامها، دون أن يكون له أدنى تدخلٍ في تلك المعاني والألفاظ[2].

النظريات الإسلامية في ألفاظ القرآن الكريم

من خلال بحث الآراء في باب ألفاظ القرآن يتضح أنّ بعض الافتراضات الخمسة المتقدمة لم يقل به أحدٌ من العلماء في مجال التفسير والعلوم القرآنية، ومن بين تلك الإفتراضات هناك ثلاثة فقط تم تلقيها بالاهتمام والقبول، وقد ذكر الزركشي في هذا الباب الآراء الثلاثة الآتية المنطبقة على تلك الافتراضات:

---

[1] الميزان في تفسير القرآن 15: 317، حيث ذكره العلامة الطباطبائي قدس سره كأحد الافتراضات المتصوّرة، وأما هو فيذهب إلى الافتراض الخامس.

[2] المصدر السابق.

الرأي الأول: إنّ معاني القرآن ومعارفه قد نزلت بقالبها اللفظي، وهذه الجمل من عند الله تعالى، ولم يكن لجبرائيل والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من دورٍ سوى الوساطة في إبلاغ هذه الرّسالة السماويّة إلى الناس، وهذا هو الافتراض الخامس.

الرأي الثاني: إنّ ما صدر عن الله تعالى ليس سوى المعاني والمعارف القرآنيّة، وقد نزلت هذه المعاني بواسطة جبرائيل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي صبّها في قالب الألفاظ والجمل، وقام بعرضها على المؤمنين، وهذا هو الافتراض الأول.

الرأي الثالث: تمّ إلقاء المعاني والمعارف القرآنيّة على جبرائيل عليه السلام ، فقام بصياغتها في قوالبها اللفظيّة، وعرضها على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم[1]، وهذا هو الافتراض الثاني.

وإنّ الزركشي ـ وإنْ لم يسمّ قائلاً لأيٍّ من الآراء الثلاثة المتقدّمة، ولكن يبدو من خلال كلامه الذي ذكرهُ قبل التعرّض لهذه الأقوال أنّ أبناء العامّة مطبقون على الرأي الأول، حيث قال: «واعلم أنه اتفق أهل السنة على أنّ كلام الله منزّلٌ، واختلفوا في معنى الإنزال، فقيل: معناه إظهار القرآن، وقيل: إنّ اللهَ أفهمَ كلامهُ جبرائيل وهو في السماء، وهو عالٍ من المكان وعلمه قراءته، ثمّ جبرائيل أدّاهُ في الأرض، وهو يهبطُ في المكان»[2].

---

[1] البرهان في علوم القرآن 1: 291.

[2] المصدر السابق

كما اكتفى السيوطي بنقل الآراء الثلاثة المتقدّمة، واختار الرأي الأوّل منها، وأقام عليه الأدلة[1].

كما يتضح من كلام الزرقاني الدقيق والبديع في هذا الباب أن هذه الآراء الثلاثة هي المطروحة بين العلماء، وأما الافتراضان الثالث والرابع فلم يقل بهما أحد، أو لم يحظيا بتأييد يُذكرُ من قبل أحدٍ من العلماء[2].

ويبدو من كلام العلامة الطباطبائي قدس سره أنّ هناك من يقول بالإفتراض الرابع، وهو كون الألفاظ والمعاني من صنع شخص النبي الأكرم، من الافتراضات الخمسة المتقدمة، ولكنّ العلامة عدّه سخيفاً، ولم يسمّ قائله، قال: «وأسخف منه قول من قال: إنّ القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ألقته مرتبة من نفسه الشريفة تسمّى الروح الأمين، إلى مرتبةٍ منها تسمّى القلب»[3].

ومن بين هذه الافتراضات والآراء المذكورة في موضوع ألفاظ القرآن لم يحظ باهتمام عموم المسلمين والعلماء والمفكرين في الحوزات العلميّة سوى رأيين، حيث حظيا منذ

---

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن 1: 58ـ59.

(2) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن 1: 41ـ42.

(3) الميزان في تفسير القرآن 15:317.

البداية وحتى الآن بالسهم الأكبر من البحوث والتحقيقات، ولرعاية الاختصار سنكتفي بالتعرّض إلى هذين الرأيين، تاركين تفصيل القول فيهما إلى المصادر الأخرى.

1- نظرية سماوية الألفاظ والمعاني، الأدلّة والشواهد

كان الرأي السائد بين المسلمين منذ أن عرفوا الوحي السماوي إلى يومنا هذا قائماً على أساس أنّ القرآن الكريم بجميع ما فيه من المعارف السّامية والمضامين الإلهية المسبوكة في قوالبه اللفظية وجمله وتراكيبه المعهودة قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قام بدوره كوسيطٍ بين خالق الكون والبشر باستلام هذه الرّسالة الإلهيّة، وإبلاغها إلى الناس دون أدنى زيادةٍ أو نقيصة. ويتمتع هذا الرأي بحصانةٍ برهانية، وتأييداتٍ قرآنية، حتى تلقاه المسلمون بوصفه من ضروريات الدين، وادّعى عليه الإجماع كثيرٌ من المفكرين[1]. إن السعي الحثيث الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ القرآن الكريم من أيّ تحريف وتغيير، وتوظيف عدد من المؤمنين لكتابة آيات القرآن وتثبيتها بدقة، وتعليم الآيات للحاضرين من المسلمين فور نزولها، وإرسال جماعات تبليغية لغرض تعليم القرآن لسائر المسلمين في المناطق البعيدة والنائية، وتأكيده

---

[1] مناهل العرفان في علوم القرآن 1:44؛ البرهان في علوم القرآن 1:290؛ معرفت، التمهيد في علوم القرآن 1:211؛ الشهرستاني، مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار 1:60.

على حفظ القرآن وقراءته بشكل متواصل، لدليلٌ على أنّ ألفاظ القرآن الكريم وجمله وتراكيبه، كمعارفه ومعانيه السّامية، نابعة من معين العلوم الإلهيّة التي لا تنضب.

وقد قامت سيرة المسلمين وسلوكهم العملي في التعاطي مع القرآن الكريم على إثبات هذه الحقيقة، فكما سعى المسلمون إلى فهم معارف القرآن ومفاهيمه السماوية، وتصدّوا لنشوء أيّ إنحرافٍ في هذا المجال، سعوا بنفس الوتيرة والنسبة إلى تعلم ألفاظ القرآن وأساليبه التركيبيّة، وبنية متنه الظاهريّة، والوصول إلى أسلوبه البديع ووجوه الفصاحة والبلاغة، وإيقاعه الموزون أيضاً. وقد كانت الجهود الواسعة التي بذلها علماء المسلمين بشأن البنية الظاهريّة والأسلوب الكلامي في القرآن يقوم قبل كلّ شيءٍ على إيمانهم واعتقادهم بسماويّة ألفاظ القرآن الكريم. وإنّ البحوث الكثيرة حول ظواهر القرآن الكريم، وإمكان فهمه وتفسيره، وترجمته إلى سائر اللغات، وجمعه وتدوينه وكتابته، وتواتره عبر العصور وعدم تحريفه، ناشئة بنحوٍ من الأنحاء عن الاعتقاد بسماويّة هذا الكتاب شكلاً ومضموناً. إن الاعتقاد بسماويّة ألفاظ القرآن وبنيته الظاهرية من العمق والرسوخ في وجدان المؤمنين بحيث كان القرآن عندهم على الدوام نصّاً مقدّساً يحظى باحترامهم الخاص، وأفردوا له موضعاً مخصوصاً يرفعه على جميع النصوص البشريّة.

وقد أقيمت أدلة كثيرة على سماويّة ألفاظ القرآن وبنيته الظاهريّة، وفي ما يأتي نشير إلى بعضها:

1 ـ يعلنُ القرآنُ صراحة أنه كلام الله تعالى[1]، وإنما تصح نسبة الكلام إلى قائله، وتكون منطقيّة ومعقولة، إذا كان لذلك القائل دورٌ أساسٌ في اختيار وتنظيم الكلام وصياغة جمله وتراكيبه[2]. وأما إذا قامَ بتلقين بعض المفاهيم لشخص، ثمّ قام ذلك الشخصُ بصبِّ تلك المفاهيم في قوالب لفظيّةٍ عمد إلى اختيارها بنفسه، فعندها سينسب الكلام إلى هذا الشخص، ولن تكون نسبتها إلى الملقن منطقيّة ومتعارفة أبداً[3].

2 ــ لا شك في أنّ الجزء الأعظم من إعجاز القرآن يعود إلى بنيته الظاهريّة وأسلوبه البديع والمنفرد في بابه. إن بلاغة القرآن وفصاحته الفريدة، والتي أطبق العلماءُ في فنون الكلام العربي على كونها من الوجوه الإعجازيّة للقرآن، ناظرة إلى تركيبته الظاهريّة. وإنّ رسالة القرآن في التحدّي، والتي تدعو الجميع إلى الإتيان بمثل القرآن، إنما ترمي إلى الإتيان بمثل قالبه اللفظي، حيث تقول: إذا كنتم في شكّ من سماويّة هذه الألفاظ والقوالب المتضمّنة للمعارف القرآنيّة السّاميّة فاتوا بألفاظ وقوالب أخرى مشابهة لهذه الألفاظ، من باب المعارضة ولإثبات دعواكم. إن هذا التحدّي، وعجز المشركين عن الإتيان بمثله، لدليل على أنّ البنية الظاهرية للقرآن وأسلوبه البياني هو من عند الله

---

[1] قال تعالى في الآية 6 من سورة التوبة: {وإنْ أحدٌ من المشركين استجاركَ فأجرهُ حتى يسمعَ كلام الله}، وهكذا ورد التعبير بكلام الله في الآية 75 من سورة البقرة، والآية 15 من سورة الفتح.

[2] التمهيد في علوم القرآن 1:210.

[3] المصدر السابق؛ مناهل العرفان في علوم القرآن 1:44.

تعالى[1]، ولم يكن هناك دخل لكلام أيّ شخصٍ آخر، حتى النبيّ، في صياغته. قال الزرقاني في بيان هذا الدليل: «إنّ الإعجاز منوطٌ بألفاظ القرآن، فلو أُبيحَ أداؤه بالمعنى لذهبَ إعجازه، وكانَ مظنة للتغيير والتبديل»[2].

3 ـ هناك آيات كثيرة تدلُّ بوضوح على سماويّة ألفاظ القرآن وتركيبة نصّه العربي، ومنها:

{وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: 2ـ4].

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2].

{وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} [الأحقاف: 12].

حيثُ تنسب هذه الآيات تركيبة القرآن وألفاظه العربيّة إلى الله سبحانه وتعالى صراحة، ومن الواضح أن (اللسان) و (العربية) لا ربط لهما بالمضمون أبداً؛ إذ هما من أوصاف الألفاظ والبنية الظاهرية للنص.

---

[1] قرآن شناسي، 1:93؛ التمهيد في علوم القرآن 1:210ـ211، وقد عقد المؤلف في الجزء الخامس من هذا الكتاب بحثاً تفصيليّاً حول الأسلوب البياني للقرآن.

[2] مناهل العرفان في علوم القرآن 1:44.

وهناك آيات أخرى تدلّ بوضوح على عدم تدخل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في صياغة ألفاظ القرآن، وتبعيّته المحضة للوحي الإلهي في ذلك، ومنها:

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس: 15].

{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 3ـ4].

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الكهف: 27].

ومضافاً إلى الآيات المتقدّمة، فإنّ الآيات التي تصرّحُ بقراءة القرآن وتلاوته وإلقائه على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تدلُّ أيضاً على موضوع بحثنا، وإليك بعض الأمثلةِ منها:

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا} [الفرقان: 32].

{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: 17ـ18].

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا} [المزمل: 5].

ومن الواضحُ جدّاً أنّ (الترتيل) و(القراءة) و(إلقاء القول) تعود بأجمعها إلى الألفاظ والعبارات، ولا يمكن أن تكون لها أية نسبةٍ مع محتوى الكلام ومضمونه، ومن خلال التمعّن والتدقيق في الآيات المتقدّمة، وكثيرٍ من الآيات التي تبين كيفية نزول الوحي على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يبقى أيُّ مجالٍ للترديد في أنّ ألفاظ القرآن وتركيبته الظاهريّة وأسلوبه البياني كمضمونه ومحتواه السامي ومعارفه الساطعة، قد نزل من عند الله سبحانه على سفير الوحي والرّسالة، وأنّ دور جبرائيل والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن سوى الوساطة في تلقي هذا الوحي، وإبلاغه إلى الناس.

4 ـ إن الاختلاف الواضح بين تركيبة النص القرآني الظاهري والكلمات والأحاديث المنقولة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي لم ولن يخفى عن أيّ عالم متعمّقٍ في فنون الكلام، لدليلٌ آخر على سماوية ألفاظ القرآن الكريم وكلماته. وإن العرب الذين عاصروا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وعاشوا معه لسنوات عديدة، وتعرفوا على أسلوبه البياني بشكلٍ كاملٍ، وجدوا أنفسهم لدى سماع أولى آيات الوحي فجأة أمام محيطٍ من المضامين محمولٍ في قوالب وألفاظ لا قبلَ لهم بها، ووجدوا أنفسهم أمام أسلوبٍ أسمى من جميع الأساليب التي صدعَ بها الإنسان، فأذعنوا جهاراً بسماويتها، ومنهم من أعلن عن إسلامه فور سماعها، وقدّمَ نفسهُ رخيصة في سبيله،

ومنهم من سلك ـ رغم اعترافه الصريح بحقيقة الأمر ـ طريق العناد والعداوة، فكان جزاؤه الخلود في الظلمات الأبديّة[1].

وقد قال الزرقاني حيث أدرك قوّة هذا الدليل، تحت عنوان «أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي»:

«ولقد كان العربُ يعرفون نبيّ الإسلام، ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه، فلم يخطر ببال منصفٍ منهم أن يقول: إنّ هذا القرآن كلام محمد؛ وذلك لما يرى من المفارقات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم »[2].

كما أكّد القرآن الكريم التمايز بين كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وآيات الوحي، ويمكن في هذا الشأن الرجوع إلى الآية 16 من سورة يونس.

5 ــ إن معارف القرآن وحقائقه ومحتواه من العظمة والعمق والسعة بحيث تفوقُ طاقة الإنسان على حملها، ويستحيل عليه الإحاطة بجميع تلك المعارف السماوية بشكل كامل، ويعجز عن وضعها في قوالب لفظية. وقد صرّح القرآن بعظمة الوحي، حيثُ قال: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا} [المزمل:5]، ومن جهةٍ أخرى يعرّفُ النبيّ الأكرم على أنه إنسانٌ كسائر البشر، ولكن يوحى إليه من قبل الله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

---

[1] التمهيد في علوم القرآن 4:28ـ29.

[2] مناهل العرفان في علوم القرآن 2:235.

يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

إنّ النبي الأكرم الذي هو إنسانٌ كسائر البشر إنما يمكنه ـ من خلال انشراح صدره(الإنشراح: 1)، وطهارته من جميع الخبائث والأرجاس(الأحزاب: 33) ـ أن يحمل وحي السماء بما له من العظمة والعمق، ويبلغه إلى الناس دون زيادةٍ أو نقيصة. وإن إلباس الحقائق السماوية العظيمة والمحتوى الرباني العميق واللامتناهي لباس الألفاظ والكلمات، كما هو خارجٌ عن قدرة الإنس والجن(الإسراء: 8)، كذلك هو خارجٌ عن قدرة شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً.

وقد تمسك جلال الدين السيوطي بهذا الدليل لإثبات سماويّة ألفاظ القرآن الكريم، حيثُ قال: «وإنّ تحتَ كلّ حرفٍ منه معانيَ لا يُحاط بها كثرة فلا يقدرُ أحدٌ أن يأتيَ بدلهُ بما يشتملُ عليه»[1].

إذاً نستنتجُ من الأدلة المتقدّمة بوضوحٍ أن ألفاظ القرآن وكلماته وبنيته الظاهريّة هي كمحتواه ومضامينه السّامية ومعارفه السّاطعة، وحيٌ إلهيٌّ أُنزل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة أمين الوحي جبرائيل عليه السلام ، وأبلغه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس دون زيادة أو نقيصة، وأن ما عُرّفَ للناس على أنه

---

[1] الإتقان في علوم القرآن 1:59.

القرآن منذ عصر نزوله والعصور التي تلته إلى يومنا هذا، وتنعّمت المجتمعات البشريّة على الدوام بحضوره السّاطع، هو وحيٌ إلهيٌّ بجميع كلماته وحروفه، وقد خوطب به جميعُ الناس في كافة الأعصار والأمصار على السّواء[1].

2- نظرية سماويّة مفاهيم القرآن، وبشريّة ألفاظه

يذهب الرأي الثاني إلى أنّ ما أُوحيَ إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من قبل الله عزوجل ليس سوى المعارف والمضامين القرآنيّة العميقة، والتي لولا الوحي لم يكن بإمكان البشر معرفتها، إلا أنّ إلباس تلك المضامين بالقوالب اللفظيّة قد تمّ من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شخصيّاً.

وفي حدود علمي فإن جذور هذا الرأي تعود إلى القرن الهجري الثالث؛ إذ صدع به ابن كلاب[2] المتكلم المعروف، حيث كان في مقدمة المنظرين لمذهب الأشاعرة، ويرى في ما يتعلق بكلام الله أنه من صفات الذات، وقديم بقدمه وغير مخلوق، ومضافاً إلى هذا

---

[1] إنّ لصدر المتألهين قدس سره كلاماً جميلاً بشأن حكمة نزول المعارف الإلهيّة السّامية في قالب الألفاظ والحروف، راجع: مفاتيح الغيب: 10 و11، طهران، مؤسسة التحقيقات والدراسات الثقافية، الطبعة الأولى، عام 1363ش.

[2] أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، المتكلم المعروف، وقد عاش في القرن الهجري الثالث، وكان من الذين دوّنوا معتقدات السلف في علم الكلام، ثم سار على نهجه رجالٌ من قبيل أبي الحسن الأشعري فأسس (المذهب الأشعري في علم الكلام)، وقد كان ابن كلاب من المعارضين المبرزين لمذهب الاعتزال، وكتب في نقض آرائهم بعض المصنفات، ولم يضبط تاريخ وفاته بدقة، ولكنهم ذكروا أن وفاته قد حدثت بعد عام 240هـ ق. وقد كان لآراء ومعتقدات ابن كلاب الكلامية أثر كبير في تكوين الكلام الإسلامي، وقد بحث من تلاه من المتكلمين آراءه بجدّية وكان فيهم من تبناها ومن عارضها، وعرف أتباعه بالكلابية، دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، ج4، طهران، الطبعة الأولى، عام 1370هـ ش، بإشراف السيد كاظم البجنوردي.

الرأي، الذي تلقته الأشاعرة بالقبول، له رأيٌ آخر حول القرآن وسائر الكتب السّماويّة الأخرى، وهو أنّ كلام الله القديم لم يتمّ تدوينه في مصحف وكتابٍ مدوّن، ودليله على ذلك «أن الرسم والتعبير العربي أو العبري لكلام الله مغاير لعين كلام الله، وإن القرآن الكريم رسمٌ وتعبيرٌعربيّ لكلام الله وليس عينه»، ولذلك فهو يذهبُ إلى حدوثِ ظاهرة تعبيرية تحمل سمات اللغة العربية أثناء نزول الوحي القرآني على مسامع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم [1].

كما أنه يرى أن محدوديّة الكلام العربي أدّت إلى محدوديّة كلام الله أثناء نزوله، مما طبعه بصبغة بشريّة، ومن هنا لا يمكن الاعتقاد بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى[2].

إن هذه الرؤية الخاصّة بابن كلاب حول ألفاظ القرآن وعباراته، وإن واجهت هجوماً عنيفاً من قبل كبار العلماء، من قبيل: القاضي عبد الجبّار، وأبي الحسن الأشعري في القرن الرابع والخامس، وابن تيمية في القرن السّادس، ولكنها لا تزال إلى يومنا هذا حاضرة بين العلماء في مجال العلوم وتفسير القرآن بوصفها رؤية نادرة. وإن ذكر هذا الرأي إلى جانب الرأي الأوّل، وهو الرأي السائد والذي عليه إطباق المسلمين في القرون الإسلاميّة الأولى، في أمّهات المصادر، مثل: البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للزرقاني، ونقلها عن العلماء السابقين، دليل على حضور هذه الرؤية

---

(1) محمد مهدي الشبستري، هرمونتيك كتاب وسنت: 126، طهران، طرح نو، 1375هـ ش.

(2) المصدر السابق.

المتواصل في مجال الفكر الديني، وخضوعها للبحث والدراسة المتواصلة، وإن لم تسمّ هذه المصادر المتقدّمة قائلاً بهذه الرؤية. ويبدو أن هذا الرأي قد حظي في القرن الأخير باهتمامٍ وإقبالٍ أكبر، إذ يسعى بعض الكتاب المجددين، من خلال الانحياز لهذه الرؤية، إلى تعزيزها والترويج لها.

وهناك من العلماء، كـ شاه وليّ الله دهلوي[1]، وسير سيد أحمد خان الهندي[2]، والسيّد أمير علي الهندي[3]، والذي كان لكلّ واحدٍ منهم دورٌ في نهضة الإصلاح الديني في شبه القارّة الهنديّة، من ذهب إلى أنّ ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو المعاني والمعارف القرآنيّة فقط، وأن القوالب اللفظية والبنية الظاهرية للقرآن من صياغة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

وكذلك يمكن الوصول إلى هذه الرؤية من خلال بعض كتابات الكاتب المصري الدكتور نصر حامد أبو زيد[4]. كما يقرّ بعض الكتاب الذين يذهبون إلى المساواة بين الوحي والتجربة الفرديّة لشخص الرسول بهذه الرؤية، سواءٌ أشعروا بذلك أم لم يشعروا.

---

[1] بهاء الدين الخرّمشاهي، التفسير والتفاسير الجديدة: 68.

[2] المصدر السابق

[3] علي أصغر الحلبي، تاريخ الثورات الدينيّة المعاصرة: 148.

[4] نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن: 18ـ 19، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، عام2000م.

إنّ أنصار هذه الرؤية لم يقدّموا أي دليلٍ منطقيٍّ على إثبات مدعاهم، واكتفوا بطرح دعواهم فقط، وربما أمكن العثور على المستند الأساس لهذه الدّعوى في بعض آيات القرآن الكريم، حيث صرّحت بعض الآيات بنزول الوحي على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنّ نزول الوحي على القلب بنحوٍ طبيعي لا يفتقر إلى استعمال الألفاظ والعبارات[1]، وتلك الآيات هي:

1 ـ {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}[الشعراء: 192ـ194].

2 ـ {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[البقرة: 97].

وبالاستناد إلى هاتين الآيتين يكون القلب المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محلاً لنزول الوحي، وإن إدخال أمرٍ في القلب لا يحتاج إلى استخدام القوالب اللفظية والتعبيريّة؛ فإنّ استعمال الألفاظ إنما يصار إليه لإيصال المطالب إلى الأذن، التي تعدّ من الحواس الظاهريّة للإنسان.

---

[1] السيد أبو الفضل مير محمد الزرندي، تاريخ وعلوم القرآن: 45، قم، دفتر انتشارات إسلامى، الطبعة الثانية، 1369هـ ش.

ويبدو أن الأدلة الخمسة المتقدّمة في إثبات الرأي الأول كفيلة بإبطال الرأي الثاني أيضاً.

ومن جهة أخرى فإن الاستدلال بالآيتين المتقدّمتين لإثبات الرأي الثاني مردود؛ وذلك:

أوّلاً: إن الأدلة التي تقدّمت لإثبات الرأي الأوّل تحدّثت بصراحةٍ عن سماويّة الألفاظ القرآنيّة، والبنية العربيّة للقرآن، و(التلاوة)، و(إلقاء القول)، مما يعتبر بأجمعه من خصائص البناء الظاهري للمتن، وتبعيّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم المحضة للوحي الإلهي وعدم تدخله في تبديله أو تغييره. وفي بعض الآيات نُسبتْ عربيّة القرآن إلى الله مباشرة [1]. وعليه لابدّ من تفسير الآيات التي تثبت نزول الوحي على القلب بشكلٍ ينسجم ويتناغم مع الكمّ الهائل من الآيات القرآنيّة التي تثبت سماويّة الألفاظ القرآنية.

ثانياً: إنّ سماويّة القرآن وعباراته، والبنية العربيّة للقرآن الكريم، ليس فيها أيّة منافاة لنزول القرآن على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم وجميع العلماء الذين يذهبون إلى سماويّة الألفاظ لا يرون نزول الوحي مسألة مادّية أو حسّيّة، فإنّ نزول المعارف والمفاهيم السماوية الرفيعة في قالب الألفاظ والعبارات واللغة العربية، وإن أكّدها القرآن، واعتقد بها المؤمنون قاطبة من حين نزول الوحي إلى يومنا هذا، إلا أنّ هذا لا يستلزم أن يكون الوحي قد تحقق بأدواتٍ حسّية

---

[1] من قبيل الآيتين 3و4 من سورة الزخرف، والآية 5 من سورة يوسف.

متعارفة، كالفم واللسان من قبل المتكلم، والأذن من ناحية السامع، فكما أنّ الوحي من مقولة العلم الحضوري[1] فكذلك قوالبه وتركيباته الظاهريّة يمكن أن تكون من مقولة العلم الحضوري أيضاً. ولا يمكن ادعاءُ أنّ الوحي من مقولة العلم الحضوري في حين أنّ قوالبه والبنية الظاهريّة لتحققه من نوع الأدوات التي يتمّ توظيفها في العلم الحصولي. وعليه كما تعرض المفاهيم والمعارف السماويّة الرفيعة في عملية تحقق الوحي من بحر العلوم الإلهيّة اللامتناهي على وجود النبيّ الأكرم بالنحو الحضوري، فتتسع على أثره الآفاق الوجوديّة المباركة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فيتصل ببحر العلوم الإلهيّة، تنعكس في الوقت ذاته القوالب والعبارات والبنى الظاهريّة بما يتناسب وتلك المفاهيم والمعارف العميقة، كمرآةٍ على صفحة وجوده، وإنّ هذه القوالب المطبوعة في وجود النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هي التي تمكنه من عرض الوحي على العالمين دون أدنى تغيير من زيادة أو نقيصة.

وعلى هذا الأساس لا يكون هناك تعارضٌ أو تنافٍ بين الآيات التي تعرّفُ قلب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بوصفه محلاً لنزول الوحي والآيات التي تثبت سماويّة الألفاظ القرآنيّة، بل إنّ جميع الآيات القرآنيّة تكمّلُ وتتمّمُ بعضها.

---

[1] محمد تقي مصباح اليزدي، راهنما شناسى: 26 ـ 27، قم، مركز إدارة الحوزة العلمية، الطبعة الأولى، 1367هـ ش.

وقد أكّد العلامة الطباطبائي قدس سره على الإجابة المتقدّمة ضمن ردّ الرأي القائم على نسبة الألفاظ القرآنيّة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك عند تفسير الآيتين 193 و194 من سورة الشعراء، واللتان تصرّحان بنزول الوحي على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيثُ يرى أنّ القلب في الآية المذكورة عبارة عن النفس الإنسانيّة الشاعرة والمدركة والمنيرة، ويرى أنّ نزول الوحي على القلب في الآية المذكورة ناظرٌ إلى كيفيّة تلقي الوحي واستلامه من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويصرّحُ بأنّ تلقي الوحي كانَ يتمّ من قبل نفسه الشريفة دون تدخلٍ من حواسّه الظاهريّة، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرى مَلك الوحي ويسمع كلامه دون أن يستخدم في هذه الرؤية والسّماع السمعَ والنظرَ وحواسّه الظاهريّة [1].

ثالثاً: بعد أن ذكر القرآن الكريم نزول القرآن الكريم على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الآيتين 193 و194 من سورة الشعراء أردف ذلك قائلاً: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}،الأمر الذي يؤكّدُ عدم منافاة نزول الوحي على القلب لوحيانية الألفاظ القرآنية وبنيته الظاهريّة.

---

[1] الميزان في تفسير القرآن 317:15.

وعليه لا يمكن للآيات التي ترى قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم محلاً لنزول الوحي الإلهي أن تكون مستنداً مقبولاً للرأي الثاني، ومن هنا يكونُ هذا الرأي مجرّد دعوى لا تقوم على أيّة دعامةٍ علميّة أو برهانٍ رصين[1].

[1] للاطلاع أكثر حول سماويّة الألفاظ القرآنيّة راجع: فصلنامه پژوهشهاى قرآنى، العدد 21ـ22، مقالة بهذا العنوان لموسى الحسيني؛ وكذلك تاريخ وعلوم القرآن: 38 ـ 46.

نظرية بشرية الوحي والقرآن

فكرة بوذية مرفوضة

أ. حميد رضا مظاهري يتربي *

ترجمة: السيد حسن الهاشمي

- سروش ومفارقة الطروحات والمستوى العلمي

منذ سنوات والدكتور سروش يردد أموراً مبهمة وغير مفهومة بشكل جيد، ويبدو أن الأفكار التي يطرحها بشأن الإسلام جديدة، ولم يسبقه إليها غيره.

إن ما يثير دهشتي هو أن المستوى العلمي لسروش أكبر من أن يتورّط في سوء فهم حول هذه المسائل، كالبحث في خلق القرآن، والذي بحثه المسلمون منذ القدم، إلا أن أساس الموضوع كان شيئاً آخر، حيث كان الكلام يدور حول القرآن، وهل هو مخلوق لله أو هو

* باحث في مؤسسة (فرهنگ وأنديشه إسلامي) للدراسات والأبحاث

أزلي؟ وروایاتنا المروية عن أئمتنا عليهم السلام تقول بخلق القرآن من قبل الله، وأما كونه من صنع النبي فهو بديهي البطلان، وقد أقيمت لذلك أدلة واضحة في علم الكلام، ولست بوارد التعرض لها هنا.

إذا تم بيان الكلام بشكل منطقي أمكن التساؤل عن انعكاساته المنطقية، وأما إذا أطلق الكلام على عواهنه، ومن دون أن يصبّ في إطار علمي، فلن يمكن التكهن بانعكاساته إلا من قبل المتكلم نفسه، وأما لو تابع شخص هذه الأقوال منطقياً فإن الأمر ينتهي به إلى إنكار حجية الوحي والنبوة، والخروج من الإسلام، بل ومن كل دين. ونحن نقطع بأنه لا يريد الوصول إلى هذه النتائج، وعلى مستوى معرفتي فقد كان شخصاً متديناً.

- بعض العقائد الباطلة نتيجة بُعد نفسي

يحدث أحياناً ـ كنتيجة لبعض المشاكل والكوارث ـ أن يختل الاتزان الذهني. وقد شهدنا لذلك أمثلة بين طلاب الجامعات والأساتذة الكبار، من ذلك أن أحد الأساتذة المحترمين والمتدينين، والذي كان على درجة علمية فريدة، فقد ابنه في حادثة سير، فبقي لفترة طويلة في صراع نفسي، أدى به إلى التشكيك في عدل الله ورحمته الواسعة، فلم تكن آراؤه منطقية، ولكنها تعود في جذورها إلى خلفية نفسية وعاطفية، وبعد مضي فترة ـ وبسبب ما يتمتع به من إيمان قلبي وتواضع في مراجعة علماء الدين ـ تخلّص من شكوكه، وعاد أكثر إيماناً من ذي قبل، حتى أجد في نفسي رغبة في الاقتداء بصلاته.

- تأثر سروش بالبوذية

بعد أن ذاقت المجتمعات الغربية ويلات الإلحاد والبعد عن الدين والمعنويات كثرت التيارات العرفانية المنبثقة عن البوذية وغيرها من الديانات القديمة الأخرى، وبدأ الغربيون بالعودة إلى أحضان الدين، وقد أبدى الكثير منهم ميلاً نحو القراءة الجديدة عن البوذية، حيث لا وجود فيها للاعتقاد بالله والوحي والنبوة، ويتلخص الأمر في الإنسان، وأن بإمكان كلّ شخص أن يكون (بوذا)، وأن بلوغ قمة المعنوية والروحية يعود إلى تجربة إنسانية محضة، وأن الإنسان إنما يصل إلى النور والوعي المعنوي من قبل نفسه، وليس من قبل حقيقة أقوى وأفضل وراء شخصيته الباطنة.

إن الخصيصة البارزة للبوذية، والتي مكنتها من أن تفتح لنفسها منفذاً إلى الحضارة الغربية، هي محورية الإنسان، ويبدو أن هناك في إيران من أخذ يبدي ميلاً نحو هذه الاتجاه، وفي هذا الاتجاه ينبثق العرفان من نفس الإنسان، فهو كل شيء، وليس الله الذي هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

لست أدري ما هو منشأ كلامه القائل: «إن هذا الإلهام ينبثق من نفس النبي، وإن نفس كل فردٍ هي نفس إلهية»، ولكن هناك تشابه كبير بينه وبين الأفكار البوذية والبوذية الحديثة. إن الإسلام يرى للإنسان روحاً إلهية تمكنه ـ من خلال الإيمان والعمل الصالح ـ من إعادة هذه النفحة الإلهية والنور الإلهي إلى أصله. وفي هذه العودة يغدو الإنسان

مرآة لأنوار الحق، ويؤمن بعدميته، ويرى كلّ الوجود لله، ويرى نفسه مغموراً بعلمه ونوره ورحمته وقدرته اللامتناهية، ويدرك أن كل شيءٍ من الله، بما في ذلك وجود الإنسان نفسه، ويقرّ بعبوديته المطلقة لله تبارك وتعالى.

يرى العرفان الإسلامي أن تجاوز النفس والوصول والاتصال بالحقيقة العليا هو المصدر للعلوم العرفانية، وأن كل مَنْ يتحرّر من أسر هواه يقترب من أصل الوجود والكمال بمقدار درجة تحرره، وتزداد إدراكاته العرفانية. وإن العرفاء يسمون هذه المدركات، التي هي نوع من انكشاف الغيب، بالنبوة، فالنبوّة من الإنباء وبلوغ حقيقة الخبر، وأدرك العرفاء أن الانكشاف التام الذي حصل عليه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يختلف عن الانكشاف الحاصل لسائر العرفاء والسالكين، ومن هنا فرّقوا بين النبوة التشريعية، التي يختصّ بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والسالكين، ومعيار الانكشاف الإنبائي هو الكشف المحمدي، ومن هنا قالوا: «كل استنتاج باطني مخالف للشريعة المحمدية هو استنتاج شيطاني وباطل».

- فقدان دعوى بشرية القرآن للامتداد التاريخي في الموروث الإسلامي

وعليه لا يستند الكلام المتقدّم إلى أي مستند في التاريخ الإسلامي الفكري، كما انه ليس إبداعاً علمياً منطقياً مستدلاً يعتدّ به، مضافاً إلى انه لا يعدّ كشفاً وشهوداً وفقاً للميثولوجيا العرفانية؛ وذلك لأن أبسط طالب يعلم أن الله قد حفظ كتابة من أن تطاله

يد الإنسان، ولو كان ذلك الإنسان بحجم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}.

وفي ما يتعلق بالتفوق العلمي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على أهل زمانه نقول: في العرفان الذي يبلغ الاتصال فيه بالله حدّ النبوّة، بل وحتى الإمامة، يتجرد الإنسان فيه من جميع الأهواء النفسية، ويتحول إلى كتلة من العلم الإلهي اللامتناهي، وما علوم عصرنا عن الكون إلا بمقدار ورقة في محيط العلم الإلهي. إن جزءاً كبيراً من علوم عصرنا لا تعدو كونها نظريات سيثبت المستقبل بطلانها، وإن المقدار المنكشف من الواقع قد سبق بيانه في العلم الإلهي، وجرى على ألسنة المعصومين عليهم السلام، حيث إن علمهم من علم الله، ونورهم من نور الله. إن كلام رسول الله وحي، وإن كلام المعصومين ـ بتبع النبي ـ ينبع من الوحي الإلهي، ولا يقولون شيئاً من عند أنفسهم؛ لأنّ كل ما للعبد إنما هو من الله وإليه.

- حاجة الإنسان إلى الوحي والنبوة

رغم تمتع الإنسان بروح إلهية، ولذلك تدعوه فطرته إلى الانحياز لله، نجد أن الله خلقه مختاراً، وجعل من النفس الإنسانية معتركاً يتنازعه الملائكة التي تدعوه إلى الخير والشيطان الذي يدعوه إلى الشر، وقد تغلب النبي برحمة الله على الشيطان، وقد منّ الله

بهذه النعمة على العالمين، قال تعالى: {الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، وإن الارتباط بالوحي والنبوّة يؤدي إلى غلبة العقل وملاك الخير على شيطان النفس.

إن حبل القرآن الذي يتم التمسك به من خلال اللجوء إلى إدراك معانيه التي بينها أهل البيت عليهم السلام لا يوضِّح الطريق إلى الله فحسب، وإنما يسير به في ذلك الطريق قدماً حتى بلوغ الغاية، وإن الذين ينتصرون في هذا المعترك الداخلي، ويغدو وجودهم مفعماً بنور الله وعلمه، سيتدفق القرآن الكريم من وجودهم، ويتجلى كلام الله الذي هو معشوقهم في مرآة قلوبهم، وإن الذين شاهدوا صاحب هذا الكلام بعين يقينهم يدركون أكثر من غيرهم أن هذا إنما هو كلام الله، ويبدأون بالانتهال من معين معانيه الإلهية اللامتناهية، ويشاهدون فيه كل لحظة إطلالة جديدة لمحبوبهم الأزلي، ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام: «لقد تجلى الله في كلامه».

بشرية القرآن، تهمة لم يشهدها التاريخ!

د. يحيى يثربي *

ترجمة: حسن مطر الهاشمي

تقع الكتب السماوية الموجودة بين أيدينا على قسمين مختلفين:

أما القسم الأول فيشتمل على التوراة والأناجيل (الكتاب المقدس بعهديه العتيق والجديد)، وليست من إنشاء الأنبياء، وإنما هي تقريرات تاريخية كتبها الآخرون حول حياة الأنبياء وسيرهم وأقوالهم. وإن أتباع هذه الكتب من اليهود والنصارى لا يعتبرون هذه الكتب وحياً إلهياً، وإنما هي تقريرات لنشاط الأنبياء وبعثتهم، فإنجيل يوحنا كتبه يوحنا، ورسائل بولس، التي هي جزء من الإنجيل المقدس، كتبها الرسول بولس، وعليه لا أحد من أتباع هذه الأديان يعتبر الكتاب المقدس كلاماً نبوياً، وإنما هو بمنزلة

* أستاذ جامعي، وعضو الهيئة العلمية في جامعة طهران، ورئيس قسم الفلسفة في معهد الثقافة والفكر الإسلامي.

كتب السيرة التي كتبت حول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، مثل: سيرة ابن هشام، وغيرها.

والقسم الآخر يتمثل في القرآن الكريم، والقرآن ليس كلام النبي، ولا هو عملية تأريخية كتبها الآخرون كبيان لسيرة نبي الإسلام، وإنما هو نص إلهي أنزله جبرائيل نجوماً على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينشئ النبي أيّاً من آياته، وهذا ما أيده القرآن مراراً.

هذا ولم يسبق أن ادّعى هذا الأمر أيّ من الأديان والمذاهب الموجودة، وإنّ القرآن وحده هو النص الإلهي الموجود، قد صرّح القرآن بوجود كتب سماوية سابقة، إلا أن أتباع تلك الديانات قد عمدوا إلى تحريفها وإبدالها بكتابات خطتها أيديهم.

إن أسلوب القرآن لا يشبه الأشعار العربية بأيّ وجه من الوجوه، ولم يدع أحد حتى الآن أنّ القرآن نوع من الشعر، وحتى لو أخذنا الشعر بمعناه المنطقي فمع ذلك نجد القرآن يعرف نفسه بوصفه (برهاناً) ، وليس شعراً، أو عملاً من هذا القبيل.

ولو أخذنا الشعر بمعناه الجاهلي، واعتبرناه من قبيل (سجع الكهان)، فإنه، وإن عمد أعداء الإسلام إلى اعتبار السور المكية من هذا النوع من الأشعار، إلا أن القرآن رفض هذه التهمة في الكثير من الآيات.

وعليه ربما أمكن إنكار القرآن بالمرّة، ولكن لا يمكن اعتباره من إنشاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو الذهاب إلى أنه تجربة شعرية، بينما نجد أن جزءاً من الكتاب المقدس هو من نوع الشعر، وهذا ما يعترف به اليهود والنصارى أنفسهم.

ولم يدّع أحد حتى الآن أن القرآن من صنع النبي، وإن ما ذهبت إليه المعتزلة من (خلق القرآن) لا يعني أنه من إنشاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالمعتزلة والأشاعرة متفقون على أن القرآن كلام الله، غير أنهم يختلفون في حدوثه وقدمه.

فالأشاعرة يقولون: بما أن القرآن كلام الله، فهو صفة له، فلا بد أن يكون قديماً مثلهُ؛ أما المعتزلة فإنهم ـ رغم إيمانهم بأن القرآن كلام الله ـ وفقاً لمقتضيات الزمان والمكان يرون أنه مخلوق وحادث، فهو كسائر الوجودات بالرغم من كونه كلام الله، فهو حادث، وليس بقديم.

إن منهجي في الحياة يقوم على عدم التدخل في المسائل العلمية إذا اتخذت منحىً سياسياً وحزبياً؛ ولا أرى من الصلاح أن يغدو العلم والتحقيق سلاحاً بيد الجهلة، لإثارة الضجيج والضوضاء.

سروش لم يعد مصلحاً دينياً

الشيخ علي رضا قائمي نيا *

ترجمة: السيد حسن علي مطر

- مدخل

لم أعثر في كلام الدكتور سروش على جديد، وإن كان فحوى الكلام مختلفاً إلى حدٍّ ما، حيث بدا أكثر وضوحاً وصراحة، ولكن ليس هناك شيءٌ جديد، حيث سبقه إلى ذلك بعض المثقفين، من أمثال: نصر حامد أبو زيد، ومحمد أركون، وقد تأثر سروش بأمثال هؤلاء العلماء.

وقد سبق للدكتور سروش أن ذكر هذه الأمور في كتاب «بسط تجربة نبوي»، ولذلك لا نرى شيئاً جديداً.

* باحث في فلسفة الدين والكلام الجديد، رئيس قسم نظرية المعرفة في مؤسسة الثقافة والفكر الإسلامي، له مساهمات عديدة في نقد نظريات عبدالكريم سروش.

إن ما يدعيه سروش من أن لكلامه جذوراً في القرون الوسيطة من التاريخ الإسلامي، ما هو إلا قراءة خاطئة للتاريخ، حيث لم يظهر ـ ولو عالم واحد من علماء الفريقين ـ طوال التاريخ الإسلامي من قال بأن ماهية القرآن ليست إلهية، وإنما كان الاختلاف حول أمور أخرى، وحتى المعتزلة، الذين هم أصرح من الأشاعرة في هذا المجال، كانوا يذهبون إلى نزول القرآن من عند الله تعالى، وعليه فقد كان هناك إجماع إسلامي عبر التاريخ على أن القرآن الكريم هو كلام الله.

وقد كان الاختلاف في كلمات القرآن، هل هي كلمات الله تبارك وتعالى بعينها، أو هي كلمات تفوّه بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو هي كلمات جبرائيل عليه السلام، وكانت هذه الآراء الثلاثة هي المطروحة، إلا أن الجميع يتفق على أن مضمون القرآن من الله، واختلفوا في طريقة أداء هذا المضمون في إطاره اللفظي.

وقد ذهب جميع العلماء المسلمين طوال التاريخ إلى كون القرآن معجزة، وهذا ليس أجنبياً عن المضامين القرآنية، ولذلك بذلوا دقة عالية في تحاليلهم القرآنية، فلو كان القرآن كلام النبي لم تكن هناك حاجة إلى النظر للقرآن بمثل هذه الرؤية، واعتباره معجزة، فالقرآن إنما يكون معجزة بوصفه كلام الله.

- الجذور والخلفيات المسيحية لأفكار سروش

إن لأفكار سروش جذوراً مسيحية، وهذا شيءٌ لا يمكن إنكاره، إذ يختلف في أفكاره حتى عن أفكار نصر حامد أبو زيد وأركون، حيث يذهب الدكتور سروش إلى القول بأن ماهية الوحي تجربة دينية، وتعود جذور هذه العقيدة إلى أديان مثل المسيحية، دون الإسلام، الذي يولي (الكلمة) أهمية كبيرة جداً في عملية الارتباط بالله تعالى.

- خطأ المستنورين في عدم التمييز بين الشهود والتجربة الدينية

هناك خطأ كبير يرتكبه المستنورين، فإنهم حيث وجدوا العرفاء قد ذهبوا إلى اعتبار الوحي نوعاً من الشهود، ذهبوا إلى كون الشهود نوعاً من التجربة الدينية في حين أن التجربة الدينية مصطلح مستحدث، وإنما تظهر أهمية التجربة الدينية فيما لو خفّ بريق الارتباط الكلامي وضعف المفهوم الديني.

وعليه فقد حصل خلط بين رأي العرفاء وموقف المستنيرين، حيث ذهبوا إلى اعتبار الشهود تجربة دينية.

مضافاً إلى أنّ الكثير من كلمات العرفاء يلوح منها أن بإمكان العارف بلوغ مقام النبوّة، مما أدى إلى حدوث خلط لدى المستنيرين، فتصوروا أن بإمكان كل شخص أن يبلغ مقام النبي، وينزل عليه الوحي، في حين أن الوحي مفهوم منحصر على إرادة الله، وليس هو

داخل في مجال اختيارات الإنسان، وليس بوسع العارف مهما بذل من جهد أن يبلغ مرحلة ينزل عليه الوحي فيها.

عندما نقارن كلمات الدكتور سروش بأقوال نصر حامد أبو زيد نجد أقوال نصر حامد أقرب إلى السنة الإسلامية من كلمات سروش وذلك لما لكلمات سروش من ماهية مسيحية، حيث تكونت في المناخ البروتستانتي، وهي بعيدة كل البعد عن الثقافة الإسلامية.

- ابتعاد المستنيرين عن البحوث القرآنية

الإشكال الآخر الذي يؤخذ على المستنيرين في إيران بعد الثورة هو ابتعادهم عن مناخ البحوث القرآنية، فكل من يقرأ مؤلفات الدكتور سروش يدرك بوضوح غياب البحوث القرآنية، في حين أن مؤلفات المستنيرين قبل الثورة، من قبيل: المهندس بازرجان، زاخرة بالتحقيقات القرآنية.

إن كل فكرة تحتاج في بقائها إلى الارتباط بالقرآن بنحوٍ من الأنحاء؛ وذلك لأنّ القرآن محور لجميع الأفكار الإسلامية عبر التاريخ، ولكن حينما ندقق في أفكار المستنيرين، من أمثال: الدكتور سروش، نجدها خارجة عن المباحث القرآنية، وأضحت البحوث ـ على حدّ تعبيره ـ خارج الإطار الديني، وليست لها أدنى علاقة بالبحوث القرآنية، بل وربما تصرح بمعارضتها للقرآن.

ومن هنا كان الدكتور سروش بحاجة إلى وثيقة وسند يجعله في غنىً عن الرجوع إلى القرآن، فصرّح ببشريّة القرآن، وإذا كان القرآن بشرياً؛ فلن يصلح سنداً للتعويل عليه، وعليه تعد كلمات الدكتور سروش إجراءاً وقائياً لما قد يرِد عليه في المستقبل، وأرى أنه بذلك قد خرج من الإطار العام للتفكير الإسلامي، ولم يعد بالإمكان عدّه مصلحاً للتفكير الإسلامي.

- ما هي التجربة الدينية؟

تعني التجربة الدينية أن النبي يلاقي الله، فيخرج من هذا اللقاء بمعلومة جديدة فيعمل على تقريرها، وإن هذا التقرير بشري، وإن الوحي ـ الذي هو تلك التجربة ـ ليس له شكل كلامي، وإن النبي هو الذي يصوغه في قالبه اللفظي، هذه هي دعوى الدكتور سروش. وقد ذهب الأشاعرة، وليس المعتزلة (حيث يتصور الدكتور سروش خطأً أن المعتزلة لديهم بحوث مشابهة لآرائه)،إلى أنه لا يمكن لله أن يظهر في قالب لفظي؛ ولذلك يرسل المضمون إلى النبي ليقوم بدوره بتحويله إلى ألفاظ، وإن هذا القالب اللفظي لا يختلف عن المضمون الإلهي.

في حين أن التجربة الدينية لهذا الإطار اللفظي لا تشرح هذه المضامين، وإنما هي مجرد تقرير لفظي.

مضافاً إلى أن التجربة الدينية تفرض محدوديات أخرى على القرآن، كذهنية النبي، وشخصيته، وثقافة عصره، وما إلى ذلك مما طرح في الفترة المعاصرة، وليس لها أي وجود في كلام الأشاعرة؛ وذلك لمخالفة الأشاعرة للرأي القائل بتأثير ثقافة العصر على القرآن.

- رأي الشيعة في ما يتعلق بالوحي

قال الغزالي في تفسيره لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى: 51]: هناك ثلاث طرق لإرسال الوحي إلى النبي؛ الأول: حالة خفية غير معروفة يتصل بها الله مع النبي مباشرة فيوحي إليه؛ الثاني: أن يكلمه الله من وراء حجاب، كما كلم النبي موسى×، الثالث: أن يرسل رسولاً إلى النبي، وهذا الرسول هو جبرائيل، الذي يتوسط في إيصال الوحي من الله إلى النبي.

ويذهب الشيعة إلى أن الوحي ارتباط لفظي، وأن ألفاظ القرآن هي عين كلمات الله، وليس فيها شيء من رسول الله، وهذا ما تثبته آيات القرآن نفسها.

ويختلف الشيعة في رأيهم عن المعتزلة في أن المعتزلة يذهبون إلى أن الله يحدث الأصوات الطبيعية، في حين لا يذهب الشيعة إلى هذه المحدوديات، ويقولون بأن الله تعالى يمكنه إحداث الارتباط في نفس النبي، ويكون هذا الارتباط لفظياً، ولذلك يذهب الشيعة إلى

اختلاف الوحي القرآني عن الأنحاء الأخرى من الوحي؛ فإن الله مثلاً أنزل الكتاب على النبي موسى على شكل ألواح، في حين أنزل الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله في قالب لفظي، ولم يقتصر في ذلك على مضمون الوحي، بل وكان يُتلى على مسامع النبي.

- اختلاف المعرفة الدينية عن قراءة الدين

إن المعرفة الدينية التي يعرضها الدكتور سروش ليست معرفة دينية، بل هي قراءة دينية؛ وذلك لأن المعرفة الدينية لها جذور في النصوص الدينية، وتحاول تقييمها من الداخل، أما القراءة الدينية فهي نوع قراءة لا ربط لها بالدين، وتدرس الظاهرة الدينية من الخارج، ويقوم فيها قارئ الدين بإبداء آرائه طبقاً لظنونه.

- هجران الدراسات القرآنية في الحوزات والجامعات!

لقد فقدت البحوث القرآنية مكانتها، سواء في الحوزات العلمية أو بين المستنيرين، إلى حدٍّ ما، فلقد كنا نشهد في السابق دورساً تفسيرية متنوّعة، في حين يندر أن نجد من يهتم بالبحوث القرآنية حالياً.

وأعتقد أنه بعد ظهور الأساليب الجديدة ستشهد النشاطات التفسيرية تحوّلاً في هذا المجال، ولكن بشرط التفات العلماء إلى هذه البحوث، وحصول الرؤية الجادة تجاه القرآن.

وفي هذا المضمار يبدو المستشرقون أكثر نشاطاً من الحوزات العلمية، وقد عمدوا إلى نشر كتب أكثر في مجال القرآن، وللأسف الشديد لم نلحظ بَعْد «تفسير الميزان» تفسيراً جديداً في الحوزات الشيعية، يمكنه فتح مناخ جديد.

ومن الطبيعي في ظل هذه الغربة التي يشهدها القرآن أن يظهر مستنيرون بعيدون كل البعد عن القرآن ليملأوا هذا الفراغ، وهذا هو السرّ في فشلهم.

شطحات سروش:

هل كفر سروش أم أخطأ؟

أ. محمد نصر الأصفهاني*

ترجمة: السيد حسن مطر

قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} [الزمر: 17ـ18].

إن من الصعاب المستعصية في مجال الدين والعرفان، وحتى الفلسفة، بل والعلم أحياناً، هو البعد عن الفهم العرفي، والاختلاف في مجال التخاطب بين المتكلم والسامع، الأمر الذي يعرقل الوصول إلى فهم الحقيقة، ويعطي ذريعة بيد المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ويوفر لهم فرصة في الانقضاض على خصومهم وهذا بالتحديد هو ما ابتلي به

* باحث في الدراسات المذهبية النقدية، ومختصّ بعلوم القرآن والعقيدة.

سقراط والحلاج والسهرودي وغاليلو وآخرون. وإن شطراً كبيراً من النزاعات المحتدمة بين المحدّث والمتكلم، والفيلسوف والمتكلم، والعارف والفيلسوف، والفقيه العارف والفيلسوف، والأصولي والإخباري، عبر تاريخنا وثقافتنا، وما يتبع ذلك من تكفير واتهام بالإلحاد ومحاولات القضاء على الخصوم، يتم عبر الاستفادة من هذه الذرائع. وان الحوار الذي أبداه الدكتور سروش مؤخراً وردود الفعل المختلفة التي أعقبت هذا الحوار شاهدٌ على ذلك.

إن تحمّس سروش وهيامه بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قلما نجد له مثيلاً في هذا الوقت، وفي مجتمع يدعي جميع أفراده وصلاً به، ومن المدهش أن يتهم سروش بإنكار الوحي والنبوّة ومخالفة القرآن بسبب شطحياته بشأن الوحي والنبوّة والتي تتطلب بحثاً ونقاشاً طويلاً.

- إفشاء الحقيقة خطيئة المستنيرين!

إن الذنب الذي اقترفه سروش هو إفشاؤه الأسرار عند من لا يحفظها. ولا بد من التذكير بأن هذه المعضلة لم يسلم منها حتى الإمام الخميني، الذي لا يدانيه أحد في مقامه وتأثيره الاجتماعي، فحينما يعتبر الإمام قبل الثورة كافراً ونجساً، ويعمد إلى تطهير الإناء الذي يشرب منه ولده، بسبب تعرضه لبحوث غير متداولة في الحوزة، مثل: العرفان والفلسفة، بل حتى وهو في هرم السلطة، بوصفه قائداً للثورة، يمنع من قبل المتشددين

في الحوزة من مواصلة تفسيره للقرآن في إذاعة الجمهورية الإسلامية؛ لتعارضه مع النهج والرؤية الرسمية في الحوزة العلمية، فلا غرابة من أن يواجه سروش هذا الهجوم الواسع من قبل القريب والبعيد، ويتعرّض لشتى التهم. وقد علق الإمام الخميني في الإجابة عن الاعتراضات التي وجّهت إلى تفسيره في الحلقة الأخيرة: «إن الاختلافات التي تحدث أحياناً بين العلماء يعود سببها أحياناً إلى عدم إدراك بعضهم لغة البعض الآخر، إذ لكل فئةٍ لغتها الخاصة بها...، يتلخص جوابي في عدم رفض الجميع.... ، فلا يذهبن بكم الظن إلى أن كل من تفوه بجملة عرفانية هو كافر بالضرورة....، إن من الإجحاف أن نحرم أنفسنا من بعض وجهات النظر...، ولو انه صدر عنا مثل هذه العبارات ـ على سبيل الاحتمال ـ لا تقولوا: ها قد عدتَ لمثل هذه الكلمات من جديد؛ إذ لا بد من إعادتها»[1].

كان الإمام الخميني قدس سره ينصح بضرورة فتح هذا الباب، إلا أن الضغوط كانت من القوّة والشدّة بحيث اضطر في النهاية إلى عدم مواصلة تفسيره.

هذه الحقيقة المأساوية ماثلة في مجتمعنا الديني، ولا بد أن يأتي يوم لتغييرها؛ إذ كيف يرفع المجتمع الديني شعار ثورة البرمجيات، ولا يطيق سماع الكلمات المخالفة. ولماذا لا يبادر المخلصون من الخبراء في المعارف الدينية إلى بيان الحلول لمثل هذه العُقد والمشاكل، حتى

---

(1) الإمام الخميني، تفسير سورة الحمد: 106ـ118ـ124، انتشارات طباطبائي، قم، بي تا.

يتمكن المفكرون من بيان آرائهم بحرية كاملة، بعيداً عن دوائر الخوف، لنشهد انتعاش وازدهار العلم والحضارة الإسلامية في مجتمعنا؟

- تعدّد دوافع المعارضين للدكتور سروش

وطبعاً لا بد من أخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، وهي أن دوافع المعارضين للتفكير الحرّ لا تنطلق بأجمعها من الشعور الديني والبحث عن الحقيقة، كما نلاحظ ذلك في التيارات المناهضة لرؤية الدكتور سروش، حيث لم تكن ردود الأفعال على وتيرة واحدة، وقد رسم المخالفون أهدافاً وغايات مختلفة في إبداء مواقفهم تجاهه؛ فهناك غيارى على الدين حقيقة، ولكنهم يتبنون المفهوم التقليدي والرسمي، فلا يطيقون أقواله، وردوا عليه بتكرار الأجوبة المعهودة؛ وهناك من يشكون من عقدة الطموح، وبرغم أن أكثرهم لا يفهم ما يعنيه الدكتور سروش، انتهجوا إستراتيجية ضرب الجذور والأسس التي تقوم عليها نظرية الإصلاح الديني، ظناً منهم أن ذلك يوفر عليهم ضرب الطبقات الوسطى والخارجية لهذا التيار، فعمدوا إلى طرح هذا البحث العلمي في وسائل الإعلام وإثارة الدهماء بغية الوصول إلى أهدافهم السياسية؛ أما المجموعة الثالثة فهم الذين يصطادون في المياه العكرة، وبرغم افتقارهم إلى الفهم الصحيح لما يقوله سروش، بل لا يرون ضرورة لفهم مراده، وجدوا في هذه الأجواء القاتمة فرصة لهم للتظاهر بالحماس والغيرة الدينية في مهاجمة شخص أعزل، عسى أن ينالوا حظوة وشيئاً من حطام الدنيا.

ومهما كان فإن التهم وشحن الأجواء وتوتيرها لا يؤدي إلا إلى تشويه الحقيقة، فحتى لو نجحت هذه السياسة في إسكات سروش ستظهر في زمان ومكان آخر على لسان شخص آخر، وتنكأ الجراح مرّة أخرى، وربما سيكون ذلك على يد من لا يحمل أدنى غيرة على الدين.

ما أقلّ الذين ينشدون الحقيقة، فوضعوا كلمات سروش في رقعة الإمكان، وسعوا إلى تحليلها علمياً، واعتبارها فرصة لكشف الحقيقة، أو إبطال نظرية معرفية.

وفي هذا الإطار نعمد في ما يأتي إلى تبويب ادعاءات سروش التي صدع بها مؤخراً، مع ذكر الأدلة التي ساقها في هذا المجال، والفرضيات، ونقد ومناقشة آرائه، عسى أن نصل بذلك إلى الحقيقة، كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال: «اضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب»[1].

يمكن تقسيم الكلمات التي صدرت مؤخراً عن سروش إلى أربعة مدعيات:

1ـ الوحي هو الإلهام.

2ـ تشبيه الإبداع النبوي بالإبداع الشعري.

3ـ تدخل النبي في أمر الوحي.

---

(1) غرر الحكم: 442.

4ـ إمكان الخطأ في مجال الوحي.

- كيف فهم المسلمون حقيقة الوحي؟

بما أن محور جميع البحوث المطروحة من قبل سروش ومخالفته تعود إلى (حقيقة الوحي) فلن يغدوا بالإمكان الحكم بحيادية ما لم يتم توضيح هذه المسألة.

وقد طرحت أقوال مختلفة في مختلف الثقافات الإسلامية حول بيان حقيقة الوحي. ولذلك سنعمد هنا إلى دراسة هذا المصطلح في المجال الأدبي والقرآني والكلامي والفلسفي العرفاني.

كان (الوحي)، يطلق في الثقافة العربية السابقة على الإسلام على نوع من الارتباط الخفي والسريع بين شخصين، أحدهما مؤثر؛ والآخر متأثر، ويمكن لهذا الارتباط أن يتم عبر المشافهة أو الكتابة أو الإشارة.

إن أهم ما يحدد معالم الوحي القرآني هو ماهية الارتباط الرسالي، وقد عبر القرآن بالوحي عن الارتباط الخفي القائم بين الله والإنسان، وبين الله والمخلوقات، وبين الملائكة والبشر، وبين الشياطين فيما بينهم{يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً} [الأنعام: 112]، وبين الشيطان والإنسان {فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة

وعشيّاً} [مريم: 11]، وبين الإنسان والإنسان {إذ يوحي ربك إلى الملائكة} [الأنفال: 12].

وإن أهم استعمال للوحي في القرآن هو النداء الخفي الخاص بين الخالق ومخلوقاته، ومن هنا أطلق على ارتباط الله بالملائكة {وأوحى في كلّ سماءٍ أمرها} [فصلت: 12]، والسماوات {بأنّ ربك أوحى لها} [الزلزلة: 5]، والأرض {وأوحى ربّك إلى النحل} [النحل: 68]، والنحل {وإذ أوحيتُ إلى الحواريين} [المائدة: 111]. {وأوحينا إلى أمّ موسى} [القصص: 7] وبعض عباده المخلصين والصالحين {وإذ أوحيتُ إلى الحواريين} [المائدة: 111]. {وأوحينا إلى أمّ موسى} [القصص: 7]، والأنبياء {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات}، [الأنبياء: 73]، أنه وحيٌ.

أما في مصطلح المتكلمين من المسلمين فالوحي يختص بالنبي، وعد الوحي إلى غيره بسبب الاختلاف الماهوي للمتلقين مختلفاً. فالمتكلمون إنما يرون الارتباط بين الله وعباد مخلصين له لحمل أعباء الرسالة والنبوّة «وحياً»[1]، واستعملوا لغير ذلك عناوين أخرى، فارتباط الله بالملائكة عبّر عنه بـ«الوحي الوظيفي»، وارتباطه بالجمادات

بـ«الوحي التكويني»، وارتباطه بالحيوانات بـ«الوحي الغريزي»، وارتباطه بأوليائه

---

(1) جعفر السبحاني، الإلهيات والمعارف الإسلامية: 218 ـ 226، انتشارات شفق، 1370؛ ومحمد تقي مصباح يزدي، راهنما شناسي: 22، مركز مديريت حوزة علمية قم، 1367.

بـ «الإلهام»، وارتباط الناس فيما بينهم، والشيطاين فيما بينهم، بـ «الإلقاء الخفي»[1].

وفي الرؤية الكلامية لأمثال: ابن خلدون، أو العلامة الطباطبائي، عُدّ الوحي شعوراً خفياً ومجهولاً[2]، لا يمكن لغير الأنبياء الوصول إلى كنهه.

وفي مصطلح الفلاسفة يُعدّ الوحي نوع استعداد بشري، يحصل عليه الفرد بالتدريج، من خلال بلوغ النفس مرحلة التجرّد الكاملة، بعيداً عن الانغماس في الشهوات الجسدية، وعندها ستنكشف له جميع العلوم على نحو إجمالي[3].

يرى الفارابي وابن سينا والملا صدرا وغيرهم من الفلاسفة أن العقل الفعال للعالم الروحاني هو الذي يمدّ يده نحو البشرية لرفعهم إلى العالم الأعلى، وبذلك فقد جعلوا من العقل الفعال والروح الأمين وروح القدس وعالم الملكوت شيئاً واحداً[4].

ويرى الفلاسفة أن الإنسان الكامل المتجرِّد يتواصل مع العقل الفعال، ويحصل منه على الحقائق، وأنه بهذا الوحي أو الإلهام يبلغ مرتبة النبوّة والإمامة أو الرئاسة؛ ليكون واسطة بين العقل المجرَّد الفعال والمخلوق غير المتكامل[5].

---

(1) الشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد أو شرح عقائد الصدوق: 99 ـ 100، منشورات الرضي، قم.

(2) الطباطبائي، الشيعة في الاسلام: 140، دفتر انتشارات اسلامي، 1374.

(3) الطباطبائي، نهاية الحكمة: 261، مؤسسة نشر اسلامي.

(4) أبو نصر محمد الفارابي؛ السيد جعفر سجادي، سياسة المدينة الفاضلة 136:2، سازمان چاب وانتشارات، 1371.

(5) أبو نصر محمد الفارابي؛ السيد جعفر سجادي، آراء أهل المدينة الفاضلة، مكتبة طهوري، 1361.

وقد تمّ تقرير مفهوم الوحي في مصطلح العرفاء ـ بنحوٍ مختلف عنه في مصطلح الفلاسفة والمتكلمين، حيث إن العرفاء ـ وانطلاقاً من رؤيتهم حول الاتصال والاتحاد في العالم ـ لا يحملون التفكيك الظاهري بين الله والإنسان، ويرون الكون حقيقة متكاملة ومرتبطة ببعضها.

ويرون أن الوحي هو اتصال واتحاد، وليس انتقال، ويستدلون لذلك بالاتحاد الشهودي بينهم وبين الله، وآيات، من قبيل: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ}، و{وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}. وهم بهذا الشهود لا يرون أي شيءٍ ــ بما في ذلك الوحي ــ منفكاً ومنفصلاً عن الله، بل يعتبرون كل شيءٍ شعاعاً من نور الحق، ولا يمكن أن ينفصل عنه [1].

كما يرى العرفاء عدم استثناء الإنسان من هذه القاعدة الارتباطية والاتحادية، فقد قال الإمام الخميني، بشأن قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}[الحديد: 4]، «ثبت أن الله لا يخلو منه مكان» [2]، فلا بد أن يكون المراد من الآية ما هو أعمق من ظاهرها، وأن الله موجود بين الإنسان وقلبه، قال تعالى: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: 24].

(1) تفسير سورة الحمد: 87.

(2) تفسير سورة الحمد: 110.

وعليه فالوحي عند العارف هو حالة استشعار وجود الله في القلب، والذي يحكي عن نوع اتحاد بين نفس الإنسان النورانية والوجود الأسمى الذي هو منشأ هذه النورانية.

إن الوحي من وجهة نظر العرفاء غير قابل للتوضيح والتبيين، حسيّاً أو عقلياً، وعليه فإن اختلاف المتكلم والفيلسوف والعارف يكمن في أن المتكلم والفيلسوف ـ من خلال اعتبارهم الوحي أمراً خفياً ـ يقفون عند هذا الحد، في حين يواصل العارف مشواره، ويرى إمكان بيان الوحي بشكل أوضح لا يتوصل إليه المتكلم والفيلسوف؛ بسبب خشبية استدلالاتهم، وأدلتهم الحسّية والعقلية.

واتخذ إقبال اللاهوري؛ بتأثير من الفكر العرفاني، موقفاً عرفانياً في تفسير الوحي، حيث قال: «إن أسلوب استعمال كلمة الوحي في القرآن يثبت أن الوحي من خصوصيات الحياة، إلا أنها خصوصية تختلف بحسب المراحل المختلفة لتكامل الحياة، فالنبتة التي تنمو في تربتها بحرية، والحيوان الذي يتكامل بغية الانسجام في محيط حياته، والإنسان الذي يتوصل إلى إدراك جديد عن عمق الحياة، كلّها تمثل حالات مختلفة للوحي»[1].

وكما لاحظنا فإن هناك آراء مختلفة حول حقيقة الوحي، ولا يمكن الحكم على صحة أو بطلان بعضها دون القيام بدراسة ونقد مباني هذه الآراء، وعليه إذا أردنا أن نحكم على

---

[1] محمد إقبال اللاهوري؛ أحمد آرام، إحياء الفكر الديني في الإسلام: 144ـ146، كتاب بايا، بي تا.

آراء الدكتور سروش بشأن الوحي علينا قبل كل شيء أن نتعرّف على المباني والفرضيات التي يتبناها، ومن ثم نعمد إلى نقد نظرياته وافتراضاته من خلال نقد مبانيه.

- مقارنة بين الوحي والإلهام

لقد أراد الدكتور سروش من خلال اعتباره الوحي إلهاماً إلى رفع الفوارق بين النبي وغيره من أفراد الإنسانية المتسامين، وإخراج الوحي من كونه أمراً بعيد المنال، فما هو مدى صحّة هذا الافتراض؟

لقد استعمل القرآن الكريم الوحي للأنبياء ولغيرهم، فالله تعالى يوحي إلى أم موسى عليه السلام ويظهره على السيدة مريم العذراء عليها السلام، ولم يكن هذا الارتباط حسياً، وإنما هو قلبي، وقد استعملت نفس هذه العبارات بالنسبة إلى الأنبياء الآخرين، مثل: إبراهيم، وموسى، ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، واعتبر القرآن الوجود العيني للوحي إلقاءً من قبل الله تبارك وتعالى، حيث قال: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}[النمل: 6]. وأن مهبط الوحي هو قلب النبي، وأن هذا الإنزال يقوم به الروح الأمين على قلب النبي، حيث قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}[الشعراء: 192-195]، وأن النبي يقوم بحفظ ما ينزل على قلبه ولا ينساه {سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى}[الأعلى: 6]،

وأن النبي يصدّق بما ينزل عليه، قال تعالى حكاية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}[النجم: 11].

وفي رواية: إن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقوله» (1).

فإن صحّت هذه الرواية فهناك نوعان من نزول الوحي على النبي: أحدهما من جنس الكلام؛ والآخر صوت يحلّ النبي رموزه فيدرك معناه.

ويبدو من ظاهر روايات الشيعة أن المرتبطين بالله ثلاثة، وهم: الرسول؛ والنبي؛ والمحدث، ولكل واحد منهم مرتبة من مراتب الارتباط بعالم الغيب؛ فالرسول هو الذي ينزل عليه جبرائيل، فيراه ويسمع كلامه، وينزل عليه الوحي، وربما رأى في منامه؛ وأما النبي فهو الذي يرى في منامِهِ، نحو: رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أسباب النبوّة قبل الوحي والبعثة؛ وأما المحدّث فهو الذي يحدّث فيسمع ولا يرى، وقد كان الأئمة عليهم السلام محدثين (2).

---

(1) تاريخ ابن خلدون، 98:1، دار إحياء التراث العربي، بي تا.

(2) الكليني، أصول الكافي 177:1.

وفي رواية عدّ سليمان عليه السلام محدثاً [1]. وقد صرح القرآن برؤية مريم العذراء لشخص الملك، وتكلمت معه، رغم أنها لم تكن نبياً ولا رسولاً ولا إماماً.

إذاً فالنصوص الدينية لا تأبى أن تكون هناك مراتب للارتباط بالغيب، وإمكان ذلك لغير الأنبياء أيضاً.

وقد فسّر المتكلمون هذه الآيات بأن وحي الله للأنبياء على نحوين: مباشر؛ وغير مباشر. وفي المباشر يلقي الله الوحي على قلب النبي ويفهمه محتواه من دون واسطة، وأما الوحي غير المباشر، الذي يتم عبر الواسطة، فهو على نحوين أيضاً؛ فتارةً يَكون من قبيل الرؤيا الصادقة وأحياناً يتمثل في شيءٍ مثل النار، يوصل الكلام والنداء إلى النبي، كالرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام للتضحية بإسماعيل عليه السلام، أو الصوت الذي سمعه النبي موسى عليه السلام من قلب النار؛ وأحياناً يصل الوحي إلى النبي بواسطة الرسل والملائكة، مثل: جبرائيل عليه السلام حيث خاطب النبي بقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: 1ـ2].

وقد ذكر المتكلمون في بيان كيفية الوحي انه لا يشابهه شيء من كلام البشر، وأنه رمزيّ، ولكنهم لم يقدموا إجابة شافية، وتركوا الموضوع مسكوتاً عنه.

---

[1] الطوسي، رجال الكشي 19، ح44، جامعة مشهد، 1348

أما الفلاسفة فلا مانع عندهم من تقريب الوحي، وتشبيهه بالكفاءات البشرية، بل يسعون جاهدين إلى تقديم تفسير معقول لظاهرة الوحي، واكتشاف نقاط الاشتراك، بينه وبين المعارف الأخرى، ومن هنا اعتبروا الوحي قريباً من الإلهام أو التجارب النفسية والباطنية والمدركات الذهنية للأفراد الاعتياديين، ويعتقد الفارابي وابن سينا وغيرهما أن النبوة نوع من الاستعداد الإنساني الذي يحصل عليه بفعل تكامل قواه الإدراكية والتحريكية، فحينما تبلغ النفس الإنسانية الناطقة إلى غايتها من ناحية الإحساس والتخيل والتعقل، تتصل مع عقلها الاكتسابي المتكامل بالعقل الفعال، فيبدأ بفهم المعقول بقلبه، ثم يعمل خياله القوي على اجتذاب التعقل فيجسد الملك في خياله، وفي المرتبة الثالثة يعمل إحساسه القوي إلى تحويل الخيال إلى حسّ، فيسمع النبي صوته، وفي اعتقادهم أن هذه النتيجة مغايرة لكلام المخلوق الذي تتلقاه الأذن أولاً، ثم ينتقل إلى المخيلة، ثم يناله العقل، فمن وجهة نظر الفلاسفة تستحقّ النفس الناطقة إذا بلغت الكمال العقلي والسمو الأخلاقي خلافة الله على الأرض[1].

ويربط ابن خلدون ماهية النبوّة برؤيته للإنسان في موقف مؤيد للفلاسفة، فيذهب إلى عدم انفكاك مدركات النبي عن بشريته، حيث قال: «فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملاكية، ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحة من اللمحات، ليعود بعد ذلك إلى المدارك البشرية لحكمة التبليغ،

(1) ابن سينا، الشفاء من الإلهيات: 546ـ557، الفصل السابع.

وهذا هو معنى الوحي والخطاب ومحاورة الملائكة. والمعارف التي يحصل عليها النبي في هذه الحالة من جنس الرؤية التي لا يتطرق إليها الخطأ والوهم، وان معلوماته فيها مطابقة للحقيقة الذاتية؛ لانكشاف حجب الغيب عنهم، وبعد مفارقة هذه الحالة والعودة إلى عالم البشرية، يكون قد حصل لهم الشهود، ولا ينفصل هذا الانكشاف عنهم» [1].

وخلافاً للمتكلمين يرى العرفاء للوحي مثيلاً في كلام البشر، إذ يرى العرفاء حقيقة الوحي والمكاشفة واحدة، وهي الاتصال بما وراء الحجب وكنه الوجود وشهود عالم الحقيقة [2]. وذكر القيصري، في مقدمته على فصوص الحكم، لمحيي الدين بن عربي: «بإمكان كل فرد أن يغدو ولياً، كما أن النبي إنما يكون ولياً ثم يبعث بالنبوّة والرسالة»، وذهب ـ تبعاً لابن عربي ـ إلى أن الإلهام مفهوم عام، وأن الوحي مندرجٌ تحت هذا المفهوم، فقال: (الوحي) من خواص (النبوّة)، و(الإلهام) من خواص (الولاية). إن باطن النبوة ولاية تشمل جميع المؤمنين الصالحين، الذين لا يخشون أحداً إلا الله [3].

يذهب هؤلاء إلى أن التجربة الباطنية، أو المكاشفة العرفانية، قريبة من تجربة الأنبياء، بل تفوقها. ويرى ابن عربي الولاية أو معرفة الله أساساً لجميع المراتب المعنوية، وأن جميع

---

(1) مقدمة ابن خلدون: 870ـ871، محمد بروين كنابادي، شركت انتشارات علمي فرهنگي.

(2) السيد جلال الدين آشتياني، شرح مقدمة القيصري: 620 و621، بوستان كتاب، قم، 1380.

(3) المصدر السابق 5: 869

الرسل والأنبياء أولياء، وفي رأيه أن الصفة الخاصة لكلّ ولي هي (المعرفة)، والمعرفة علم باطني يلقى في القلب بطريقة خاصة، وأن هذا العلم الباطني يختلف عن الوحي من ناحية المحتوى؛ وذلك لارتباط الوحي بالمسائل التشريعية، ومحدود بزمان ومكان خاصين، وقد تنقطع النبوّة والرسالة، أما سلسلة الولاية فلا تنقطع أبداً. ويرى ابن عربي أيضاً أن الوحي أو العلم الشرعي يحصل عليه الرسول من ملك الوحي، في حين أن العلم بالباطن إنما يحصل عليه الولي من المعين الفياض للفيض المعنوي، المتمثل في روح محمد، أو (الحقيقة المحمدية)، فالمبدأ الأساس في الوحي للأنبياء والأولياء هو (الحقيقة المحمدية) التي لا ربط لها بالخلقة السابقة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل هي عقل إلهي موجود قبل وجود آدم عليه السلام [1].

وعليه يظهر من القيصري أن لكلٍّ من الوحي والإلهام مراتب، وأن هناك أربعة فروق أساسية بين الوحي والإلهام، وهي:

1ــ الإلهام ينتقل من دون واسطة، في حين أن الوحي يفيض على النفس النبوية عن طريق شهود الملائكة.

2ـ الإلهام مجرّد كشف معنوي، في حين أن الوحي مكاشفات تتضمن الكشف المعنوي.

3ــ الإلهام من خصائص أهل الولاية، أما الوحي فمن خصائص النبوّة.

---

(1) ابن عربي، شرح فصوص الحكم 1: 74ـ75؛ أبو العلاء العفيفي، نصر الله حكمت، انتشارات إلهام، 1380ش

4ــ الإلهام ليس شرطاً في التبليغ، في حين أن الوحي شرط فيه [1].

وأما عند إقبال اللاهوري فلا فرق من ناحية الكيفية بين التجربة الباطنية والتجربة النبوّية [2]، ويرى أن التجربة الباطنية أو الدينية حالة من الشعور ذات بعد معرفي، ولا يمكن انتقال محتواها إلى الآخرين إلا على نحو حكمي[3]. ويذكر للتجربة العرفانية والنبوية (التجربة الباطنية) خمس خصائص مشتركة:

1 ــ التجربة الباطنية المباشرة والعينية كالمعارف الحسيّة.

2 ـ إن التجربة الباطنية كاملة، وليست مجزَّأة، ولا فرق فيها بين الشخص والشيء في الذهن والخارج.

3 ـ إن التجربة الباطنية هي بيان لحظة يتحد فيها حامل التجربة مع آخر، ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً، وهذا الآخر وجود متعالي ومحيط بكل شيء، وإن الاتصال بهذا الآخر تترتب عليه ردود فعل تكمن في تلبية ندائه.

---

(1) شرح مقدمة القيصري: 590 ـ 591.

(2) إحياء الفكر الديني في الإسلام: 146.

(3) إحياء الفكر الديني في الإسلام: 34.

4 ــ إن محتوى التجربة الباطنية غير قابل للشرح والتفسير لأنه أقرب إلى الشعور منه إلى المعرفة، فلا يمكن إدراك ذلك الشعور عقلاً حتى لو تمّ توضيحه بالكلمات. إن الشعور والفكر أنحاءٌ ثنائية ثابتة ومتغيرة لعامل واحد يُشكل التجربة الباطنية.

5 ـ إن الحالة الباطنية سريعة الزوال، ولكنها تترك آثارها بقوّة وعمق، وإن النبوي منها مفعم بمعانٍ للبشرية لا يمكن إحصاؤها، وإن الذي يميز التجربة الرحمانية من الشيطانية هو الثمار دون الجذور [1].

وقد ذهب إقبال اللاهوري في بيان الاختلاف بين التجربة النبوية والشهود العرفاني إلى ما ذكره ابن خلدون من الميل إلى العودة وبسط التجربة النبوية، حيث قال: يمكن تعريف النبوة على أنها إدراك باطني تنزع فيها (التجربة الاتحادية) إلى الامتلاء، والبحث عن فرص لتفسير مفردات الحياة الاجتماعية من جديد، أو منحها شكلاً جديداً، يعثر فيها النبي على ذاته، ويظهر في مرحلة تاريخية، وقال: إن للقلب اشراقة باطنية، وإن مدركاته ـ كسائر التجارب الواقعية الأخرى ـ قابلة للتأويل والتفسير والنقد، وإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان أول ناقد للتجربيات الباطنية [2].

---

(1) إحياء الفكر الديني في الإسلام: 24 ـ 30.

(2) إحياء الفكر الديني في الإسلام: 144؛ راجع: أصول الكافي، الحديث الثاني، باب حقيقة الإيمان واليقين، في ما يتعلق بحارثة ومشاهداته.

وبذلك ندرك أن اعتبار الوحي إلهاماً من قبل سروش وإن لم يتفق مع مصطلحات المتكلمين، ولكنه منسجم مع المواقف الدينية الأخرى.

- ما المائز بين الوحي والشعرو...؟

يذهب الدكتور سروش إلى اعتبار الإلهام ذا مراتب كثيرة، تشمل وساوس الشيطان، وتجارب الفنانين والشعراء والعرفاء، وإن تجربة الأنبياء تقع في ذروة الإلهام وأعلى مراتبه. ويرى أن الوحي ليس (شعوراً خفياً)، وإنما هو (فن خفي). ممّا أثار استياء بعض، ودعاه إلى القول بأنّ السيد سروش يعتبر النبي شاعراً، والقرآن شعراً.

بعد بعثة النبي الأكرم وظهور الدعوة وجد المشركون القرآن مخالفاً لمعتقداتهم العامة، ومتعارضاً مع مصالحهم، ومن هنا اتهموا النبي بالجنون، ونسبوا القرآن إلى الشعر والكهانة [الأنبياء: 5 و37؛ والصافات: 36]. وقد ذكر ابن هشام في سيرته أن الوليد بن المغيرة، وهو ممن تثنى له الوسادة في أساليب البيان العربي، أنكر أن يكون القرآن شبيهاً بأقوال الكهان أو الشعراء؛ لعدم تناغمه مع أيٍّ من الأوزان الشعرية، ومع ذلك فإن حلاوته وفصاحته، التي هي من خصائص الشعر، تجتذب الجميع [1].

---

(1) سيرة ابن هشام 242:1، رفيع الدين إسحاق الهمداني، انتشارات دانشگاه طهران، بنياد فرهنگ إيران، 1359.

وقد نفى القرآن أن يكون مضمون الوحي من شعر الشعراء أو سجع الكهان أو أقوال مجنون، قال تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ}[الحاقة: 41]، ولكنه سكت عن وجود مشابهة بين كيفية مضمون الوحي للشعر والكهانة والفن.

وقد سعى المتكلمون حفاظاً على قداسة الوحي إلى تمييز ساحة القرآن عن سائر الظواهر البشرية الأخرى، كي لا يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه أعداء النبي فنزل القرآن بذمهم، ولذلك فقد أحجموا عن مقارنة الوحي بسائر الأمور القريبة منه، وكشف أوجه التشابه بينهما.

وذكر ابن خلدون أن هذه القابلية وهذا الاستعداد إذا كان متوفراً عند بعض الأفراد بشكل كامل وجب أن يكون هذا الاستعداد موجوداً عند غير الأنبياء أيضاً، ولكن بدرجة أقل ورتبة أدنى. وقد ذهب إلى أن الكهانة تشغل واحدة من هذه المراتب الدنيا[1]، وأن هناك شيئاً من الإدراك النبوي عند الكهان، حيث قال: «... ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات، لأن وحيه من وحي الشيطان، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة، ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض

---

(1) مقدمة ابن خلدون 187:1.

الشيء على ذلك الاتصال الناقص، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة، والذي يُشيّعها من ذلك الأجنبي، ما يقذفه على لسانه، فربما صدق ووافق الحقّ، وربما كذب»[1].

كما يذهب ابن خلدون إلى اعتبار الرؤيا قريبة من الوحي؛ إذ يعتبر الرؤيا حالة تعتري النفس الناطقة عند تجردها عن الموارد الجسمانية والمدارك البدنية، وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية، فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي فإنه يحتاج إلى تعبير، وقال: «أما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملاكية المحضة، التي هي أعلى الروحانيات، وهو عندما يُعرّج على المدارك البدنية، ويقع فيها ما يقع من الإدراك، شبيهاً بحال النوم شبهاً بيّناً، ولأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة»[2].

ذهب الدكتور سروش في المقابلة التي أجراها معه مراسل الإذاعة الهولندية إلى اعتبار الوحي إلهاماً، أو شبيهاً بالتجارب التي يخوضها الفنانون والشعراء والعرفاء، وقد أضاف أن النبي يخوض هذه التجربة على مستوى أكبر ومرتبة أعلى.

وقد كان كلامه بحيث يفتح آفاقاً واسعة أمام الموافقين والمخالفين، لإمكان تفسير عبارة «على مستوى أكبر» إلى مراتب مختلفة؛ فالذين ينظرون إلى كلماته بسوء ظن وريبة فهموا

---

(1) مقدمة ابن خلدون 185:1.

(2) مقدمة ابن خلدون 1: 191 ـ 192.

من كلامه أنه لا يفرق بين الوحي والشعر، واتهموه بالكفر وإنكار القرآن. وقد سأله مراسل صحيفة (كارگزاران) انطلاقاً من هذه الرؤية قائلاً: يحكى أنكم تنكرون رسمياً نزول القرآن من عند الله، وترونه كلاماً بشرياً لمحمد، فهل هذا صحيح؟! فأجابه قائلاً: ربما كانوا يمزحون في ذلك، أو أنهم يضمرون ـ والعياذ بالله ـ غايات سياسية وشخصية، ونسأل الله أن يكونوا أساؤوا فهم مرادي، وإلا فإن العارف بالولاية الإلهية العامة وقرب أولياء الله منه تبارك وتعالى، وخَبر تجربتهم الاتحادية، لا يسعه الإنكار بمثل هذه الصراحة.

كما أوضح الدكتور سروش مراده في جوابه عن رد الشيخ السبحاني، فقدّم بهذه الإجابة قراءة جديدة عن ظاهرة الوحي، فقال: «يتلخص كلامي في أن بالإمكان إدراك ظاهرة الوحي المبهمة من خلال الاستعانة بظاهرة الشعر (أو بالإبداع الفني بشكل عام)؛ لكونها أكثر وضوحاً، وذلك على مستوى التصّور فقط. ألم يذكر الغزالي أن بالإمكان إدراك ظاهرة الوحي عن طريق الاستعانة بظاهرة الوساوس الشيطانية؟ وذلك لقوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ}».

لا إشكال في تشبيه الوحي بالشعر والكهانة والرؤيا لتوضيح المعنى وتقريبه إلى الأذهان، إذا كان وجه الشبه يكمن في الكلام الموزون، والاستفادة من صناعة الأدب في المشبه والمشبه به، أو بيان حالة الشبه بين الوحي والرؤيا في حدوث الاتصال بعالم غير

مادي، إلا أن ما يهدف إليه الدكتور سروش يذهب إلى أبعد من ذلك، فإن اعتبار كون وجه الشبه بشرياً لا يمكن قبوله بسهولة، ولقد ذكر الدكتور سروش في إيضاح كلامه: «إن الشعر بوصفه إبداعاً فنياً سامياً يختلف اختلافاً كبيراً عما كان يجول في أذهان أمثال أبي جهل وأبي لهب، وإن الاستفادة من الظواهر الأدبية لتقريب معنى الوحي لايقلل من شأن القرآن، ولا يرفع من مكانة أبي لهب! وقد ذهب العلامة الطباطبائي إلى اعتبار الوحي (شعوراً خفيّاً)، وأرى أن التعبير بـ (الفن الخفي) أنسب». وهذا هو مكمن المشكلة، فان الشعر إبداع يقوم به الشاعر، فهل يقوم النبي بعمل في تكوين الوحي؟ هذا ما يرد عليه الدكتور سروش بالإيجاب.

ويبدو أن مشابهة الشعر والوحي عند الدكتور سروش، تكمن في ثلاثة أمور:

1 ـ المضمون المجرد عن القالب الإلهامي.

2 ـ قولبة الكلام بالاستفادة من الإبداع البشري.

3 ـ السجع والوزن واستعمال الصناعة الأدبية في القرآن.

وإن الفصل بين المضمون والقالب، وهما الأصلان الأولان اللذان افترض الدكتور سروش أنهما يستدعيان مناقشة جديدة في رقعة التفكير الديني.

- دور النبي في الوحي بين الفعل والانفعال

يدور السؤال المهم حول بنية كلام الله، وكيفية (نزوله)، وهل يتدخل النبي في صياغته؟ نعلم أن الله تبارك وتعالى ليس له تعيّن ولا حدّ محدود، وعليه ما هي الآلية التي ينزل بها كلامه ووحيه إلى البشر؟ فهل هناك واسطة أو وسائط في البين أو أن ذلك يتمّ من دون واسطة؟ وإن كان هناك واسطة فمن الذي يصوغ هذا المضمون في قالب اللغة والثقافة والظروف التي يعيشها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فهل يتدخل شخص النبي في هذه الصياغة، أو ليس له من دور سوى الانفعال؟

ليس هناك من يشكّ في أن منشأ القرآن من الله تبارك وتعالى.

وهناك آيات كثيرة في القرآن تصرح بصدور القرآن عن الله وأنه كلامه، من قبيل: قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}[النمل: 6].

وفي ما يتعلق بوجود الواسطة وعدمها يقول القرآن: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى: 51].

وفي ما يتعلق بعدم الواسطة نجد القرآن ساكتاً؛ إذ لم تتضح كيفية الحجب في ما يتعلق بدورها في عملية الوحي، فمثلاً: حينما يشهد النبي موسى عليه السلام النارَ يفهم منها

حقيقة ما، فهل هذه النار مادية ومحسوسة للجميع، أو أن الذي يفهمه موسى مجرد صوت مفهوم أو معنىً ومضموناً من قلب النار؟

وفي ما يتعلق بالوحي بواسطة الرسول، الذي هو جبرائيل، أقصى ما قيل هو أن موضع هبوطه هو قلب النبي، وأن هذا النزول قد تمّ عبر روح أمينةٍ على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [الشعراء: 193ـ194]، ولم تتضح كيفية رؤية النبي للملاك بقلبه، ولسنا نعلم أيّ شيءٍ يتم إلقاؤه على قلب النبي الأكرم، ولكن ما نعلمه هو أن جميع هذه الوسائط مؤتمرة بأمر الله، ولا ينزل على قلب النبي إلا ما يريد الله نزوله، ولا يحدث أدنى دخل أو تصرف خلافاً لإرادة الله، والسؤال الذي يطرح هنا هو: ما هو الشيء الذي يلقيه الله أو جبرائيل على قلب النبي بالتحديد؟ والإجابة عن هذا السؤال لا تخرج عن واحدةٍ من الصور الآتية:

1 ــ تكوين مضمون النداء من قبل الله، وصبّه في قالب لغة القوم، وما هم عليه من الثقافة والمعتقدات والأهداف، وإرساله إلى النبي.

2 ــ إن ما يلقى على قلب النبي هو مجرد المضمون واللب وجوهر المعنى، ثم يقوم النبي بصياغته في قالبه اللفظي.

بعبارة أخرى: حينما يقول تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} هل دور الصياغة العربية يقوم به الله تبارك وتعالى مباشرة، أو جبرائيل، أو شخص النبي؟ ولبّ السؤال: هل يمكن للنبي بوصفه بشراً أن يضطلع بدور الأسباب الطبيعية والمادية للوحي؟ وهل تجربة النداء في مستوى فهم النبي هي نفسها في مستوى فهم عامة الناس؟ أو أن ما يتم إنزاله إنما يكون في مستوى فهم مَنْ خاطبه الله، وإن النبي في ذلك شبيه بالولي والعارف الذي يحول ما ينزل عليه بنحو يتلاءم وفهم مخاطبيه، ويناسب مستوى عقولهم البشرية، في قالب اللغة والثقافة والمذاق؟

وإذا كان الجواب بالنفي أو الإثبات، يرد تساؤل آخر مفاده: إن الله تبارك وتعالى يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[إبراهيم:4]. فإن كان النبي ينقل القرآن فهل يأتيه تفسيره وبيانه من خارج ذاته أو انه هو الذي يقوم ببيانه وتفسيره؟

وقلما تعرض العلماء ـ أعم من الفلاسفة والمتكلمين والمفسرين والعرفاء ـ إلى هذه الجزئيات، وأشبعوها بالبحث والتحقيق؛ إذ يذهب المتكلمون إلى أن القرآن على هيئته الموجودة حالياً قد نزل من عند الله على رسوله دون أي تغيير أو تصرف في شكله ومحتواه، وأن النبي قام بدوره بنقله إلى الناس دون تدخل أو تصرف.

والدليل على ذلك ظاهر الآيات التي تدل على أن القرآن نزل على هذه الهيئة، إلا أنهم لم يشرحوا كيفية تقبل القلب للصوت والألفاظ ومعانيها، وأغلقوا باب البحث باعتبار أن الوحي أمراً خفياً؛ كما أن المتكلمين يحجمون عن بيان وتوضيح دور النبي، ووجوده من عدمه، في مسألة الوحي.

ومهما كان فقد ثبت عند المتكلمين أن النبي ليس له أدنى تدخل في الوحي؛ لأن أي تدخل من قِبله ـ حتى لو كان من منطلق عصمته، وكان تدخله جزئياً ـ سيؤثر في مجموع الوحي والقرآن، ولن يمكن وضع حدّ لهذا التدخل.

وقد أشار الإمام الخميني من زاوية عرفانية، ومال بنحوٍ من الأنحاء، إلى تدخل النبي وتصرفه في نزول الوحي، فقد قال ضمن تفسيره لسورة الحمد على نحو عابر: «إن القرآن حقيقة ... يجب أن تنزل إلى المرتبة الدنيا والنازلة، وحتى إذا دخلت في قلب رسول الله تكون قد تنزلت مرة أخرى حتى أمكن لها دخول قلب النبي، ولا بد لها أن تنزل من ذلك الموضع لتكون على مستوى فهم الآخرين»[1]، ولم يدخل سماحته في كيفية ومقدار دور التنزل من ناحية النبي، ولكنه قال بوجود تنزلين، وذلك على مستويين للقرآن، ودليله على ذلك اختلاف مستوى الفهم بين النبي وسائر أفراد الناس.

---

[1] تفسير سورة الحمد، 93.

وقد ذهب الدكتور سروش إلى ما يشبه كلام الإمام الخميني، حيث إنه يقول: إن وظيفة النبي تكمن في إعطاء المضمون صورة كان يفتقدها، ليتمكن من وضعها في متناول الجميع؛ إذ لا يمكن تقديم هذا المضمون على الهيئة التي نزلت من عند الله، وذلك لأنها فوق مستوى فهمهم، بل هي فوق مستوى الكلمات. ويرى أن للنبي دوراً محورياً في إعادة صياغة كلام الله، وبذلك يتضح أن الدكتور سروش يذهب إلى أن دور النبي يكمن في صياغة الوحي ووضعه في قالب بشري، وهذا ما يحتاج الدكتور سروش في إثباته إلى دليل.

يبدو أن الدكتور سروش في عرض أدلته يسير على نهج العرفاء، في أن بلوغ الإنسان الكامل عند بلوغه مرتبة الفناء، وحينها تزول عنه الصبغة البشرية، ويتخذ صبغته الإلهية بأمر مقدس ومطلق بنحو من الأنحاء، وعند العودة تتخذ كلمات الله الكامنة في مسامعه، والتي تلقاها على نحو غير بشري، قالباً بشرياً، ليتمكن من نقلها إلى أولئك الذي لا يسعهم خوض تجربته.

قال الدكتور سروش: إن هذا الإلهام يَنبع من (نفس) النبي، وإن (نفس) كل شخص إلهية، إلا أن النبي يمتاز من سائر أفراد الإنسانية في أنه أدرك إلهية هذه النفس، وانتقل من القوة إلى مرحلة الفعلية، واتحدت نفسه بذات الله، وإن أولياء الله من القرب منه والفناء فيه حتى غدا كلامهم عين كلام الله، وأمرهم ونهيهم وحبهم وبُغضهم عين أمر

الله ونهيه وحبّه وبغضه، لقد كان النبي الأكرم بشراً، وقد قال تعالى حكاية عنه صلى الله عليه وآله وسلم : { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}[الإسراء:93]، إلا أن هذا البشر في الوقت نفسه قد اتخذ صبغة إلهية، وإن الوسائط ـ بما فيها (جبرائيل) ـ قد خلت بينه وبين الله حتى غدا كل ما يقوله هو كلامه الإنساني وكلام الوحي الإلهي في وقت واحد، ولم يعد بالإمكان التفريق بينهما.

يقع كلام الله أو الوحي، أو التجربة الدينية في مصطلح الدكتور سروش[1]، في وادٍ، والطبيعة البشرية للنبي والقالب اللفظي للكلام في وادٍ آخر. وقد رأى الدكتور سروش، تبعاً لمولوي والفلاسفة، وجود اختلاف ماهوي بين الساحة الإلهية والبشرية؛ إذ لا وجود في الساحة القدسية للكم والزمان والمكان.

وقد عمد الدكتور سروش إلى تصنيف محدد للأدوار بين (الأمر القدسي)، و(الأمر غير القدسي)، الذي هو من خصائص البشرية، والصنف الأول من صنع الله، والصنف الثاني من صنع الوسيط بين السماء والأرض، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتكون حصيلة الصنعين، التي هي الوحي والقرآن، إنجازاً إلهياً وبشرياً في آن واحد.

قال الدكتور سروش: «أرى محمداً رسول الله عاشقاً، مبدعاً، مملوءاً صدره بالتجربة الروحية، نافذ البصيرة، مفعمة روحه بوجود الله، فغدا كل ما يراه ويقوله إلهياً، ويرى

---

(1) عبد الكريم سروش، بسط تجربه نبوى 3: 3، مؤسسة فرهنگى سروش.

الإنسان والكون حالاً فيه وصائراً إليه، ثم يعود إلى الناس مبتهجاً بهذا الكشف النبوي ليشاركهم تجربته، ويجتذب الأرواح الظامئة إليه، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

إن تصوري لتلك الرابطة، التي هي (أقرب من حبل الوريد)، يكمن في ميتافيزيقية القرب والوصال، على نحو النفس والجسد، وببيان أوضح مثل الفلاح والشجرة، إذ يقوم الفلاح بزرع البذرة، وتقوم الشجرة بإفراز الثمرة، ولا تخرج كل ثمرة من كل شجرة، فشجرة التفاح لا تثمر غير التفاح، وان هذه الثمرة مدينة في كل ما تحتوي عليه، من عطرها، وشكلها، والفيتامينات، والأملاح، إلى الشجرة التي أخرجتها، والتي زرعت في أرضٍ مخصوصة، واستقت من نور وغذاء وهواء خاص، وطبعاً لا يخرج زرعها ولا ثمرها إلا بإذن ربّها، ولا يشكّ الموحِّدون في ذلك، بل إن وجود الشجرة هو عين أمر الله وإذنه».

الدليل الآخر الذي يتمسك به الدكتور سروش هو ما ذهب إليه المتكلمون من الشيعة والمعتزلة، والمستنيرون الجدد من أهل السنة، فقال: ألم يقل الحكماء، وفي مقدمتهم صدر الدين الشيرازي: إن كل حادث مسبوق بالمادة والمدّة (وإن كل حادث إنما يوجد في ظروف مادية وزمانية خاصة)؟ فكذلك حادث الوحي المحمدي قابل للحدوث في ظروف مادية وتاريخية خاصة وإن لتلك الظروف مدخليه كاملة في صياغة الوحي،

وتلعب دور العلة الصورية والمادية للوحي. ولا بد من الالتفات إلى أن المسألة تفوق اللفظ والمعنى، وتشمل الصورة وعدمها، وإن اللفظ أحد أنواع الصور، خلاصة القول: إن ما يأتي به محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي المحدوديات (العلمية والوجودية والتاريخية وما إلى ذلك) مما لا يمكن التنصّل عنه لكل مخلوق.

إن دليل سروش الفلسفي والكلامي في هذا الموضوع غير تام؛ إذ لا تنافي بين خلق القرآن وما يراه المخالفون، لأن الحدوث مفهوم مشكك، يمكن أن يكون مؤيداً لرأيه من أن المراد هو خلق القرآن على غير صورة، وتخويل النبي مهمة تصويره، كما يمكن أن يكون خلقاً للفظ والمعنى الذي لا يكون للنبي من دور فيه سوى الوساطة.

وعلى كل حال فإن نظرية الدكتور سروش في هذا الموضوع تقضي بتحويل دور النبي في ما يتعلق بالوحي من الانفعال التام إلى التأثير والفعالية اللائقة بالإنسان الكامل، وتستعرض قابلية الإنسان العميقة، وبذلك يحل بعض رموز الوحي وأسراره.

وأهم إشكال يرد على هذه النظرية يكمن في أنها تحمل المحدوديات البشرية على الوحي، وتجرّده من قداسته، وهذا ليس بالأمر الهيّن أوالقليل.

- إمكان تطرّق الخطأ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم

إن الدكتور سروش بذهابه إلى بشرية بعض نتائج الوحي قد فتح باب إمكان طرو الخطأ في مضمون الوحي والقرآن، وهو ما سعى المسلمون على الدوام إلى نفيه ولا يزالون، وهو ما أكد عليه القرآن في الكثير من آياته، مما يقوم على نفي كل أنواع الخلل في الوحي، وعليه اتباعه بشكل مطلق: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}[يونس:109]، وعندما لم تنزل آية على رسول الله كان المشركون يقولون للنبي: ما سبب امتناعك عن الإتيان بجديد من الآيات، انطلاقاً من تصورهم أن النبي هو الذي يختلقها، فقال تعالى في ذلك: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:203]، وانطلاقاً من هذا التصوّر كان هناك من يطالب رسول الله بتغيير بعض الآيات لينسجم كلام الله مع رغباتهم، فقال تعالى: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[يونس:15]. وغاية ما قام به الله عز وجل من تأييد لنبيه في مواجهة اتهامات خصومه أن قال: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[النجم:2ـ5]، وقال في دفع شبهة كونه من عند غير الله:

{ألر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }[هود:1].

وعلى كل حال إذا تمكنا بشقّ النفس من تفسير هذا النوع من الآيات، وقلنا: إن مراد الله من الوحي في جميع هذه الموارد هو مضمون الوحي المجرد عن الصورة، وقلنا: إن صياغة النبي للوحي إنما تكون بإشراف من الله تعالى وإذنه وان الله يمهد السبيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث قال تعالى: { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[الدخان: 58]، وقد أمضى الله ما قام به رسوله بقوله: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى}، إذا أمكن لنا ذلك بصعوبة فكيف يمكن لنا أن نفسر قالب الوحي البشري المحدود؟ وبعبارة أخرى: إذا خولنا النبي بوصفه بشراً أن يصوغ الوحي فكيف يمكننا تجنيب الوحي محذور المحدودية البشرية، وكيف يمكننا أن نملأ الجرّة بماء البحر؟

إن الدكتور سروش يدرك جيداً النتائج المترتبة على كلامه، وهو ملتزم بها، وقال صراحة: إن شخصية النبي وما يعتريها من تغير في أحوالها وأوقاتها منعكسة بأجمعها على القرآن، وان النبي يقوم بنقل هذا الإلهام باللغة التي يتقنها والأسلوب الذي يعرفه والصورة والعلم الذي حصل عليه من عصره ومحيطه.

هذه هي بشرية الوحي من وجهة نظر سروش، والتي تفتح الباب أمام تطرّق الخطأ إلى الوحي، وهنا يكمن أخطر ما في هذه النظرية، ويقول: إن الرؤية التقليدية تمنع وقوع الوحي في الخطأ، أما حالياً فيتجه الكثير من المفسرين إلى عصمة الوحي في المسائل الدينية الصرفة، من قبيل: أوصاف، الله والحياة بعد الموت، وأسس العبادة فقط،

ويميلون إلى إمكان خطأ الوحي في ما يتعلق بمسائل الكون والمجتمع الإنساني، وليس من الضروري أن يكون ما يذكره القرآن عن الوقائع التاريخية وسائر الأديان وسائر الموضوعات العملية الأرضية صحيحاً، ويستند هؤلاء المفسرون إلى أن وقوع هذا النوع من الأخطاء في الوحي والقرآن لا يؤثر في نبوّة النبي؛ لأنه إنما يتكلم على مستوى فهم الناس في عصره، ويخاطبهم بلغة عصره.

ونحن نقول للسيد سروش: إن لنا رأياً آخر؛ إذ نقول: لا نتصور أن النبي قد تحدث (بلغة عصره) بعد أن كانت علومه مستقاة من مصدر آخر.

قال الدكتور سروش: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مؤمناً بما يقول، وقد كانت تلك لغته وفكره، ولا أتصور أن علمه بشأن الأرض والكون والإنسان يفوق أبناء جيله وعصره، كما أنه لم يكن لديه العلم المعاصر، وهذا لا يؤثر في نبوته؛ لأنه إنما كان نبياً، ولم يكن مهندساً أو مؤرخاً.

إن الدليل الذي يعتمده السيد سروش هو أنه لم يرد في القرآن أن الله علمّ نبيه كافة العلوم، ولم يدّع ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه، وليس هناك من يتوقع من النبي الإجابة عن جميع المسائل العلمية، ابتداءً من الإلهيات والروحانيات إلى الطب والرياضيات والموسيقى والفلك، مضافاً إلى أن الله تعالى يأمر نبيه بأن يقول: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}، وفي عقيدة الدكتور سروش إن جاذبية الوحي المحمدي ليست في تلك

المتشابهات، وإنما هي في سورة مثل الحديد، التي تسمى بالحديد، والحال أن نسيجها من (الحرير)، وقد وصفها الغزالي بـ (حلية القرآن). وكذلك في الله ويوم القيامة والإيمان والإنفاق والجهاد والخشوع وما إلى ذلك، مما قرن بين الصلابة والمحبة، وتكفي منه صيحة، مثل: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}، لتحريك الأرواح وتأجيج شعلة الإيمان في الصدور.

- أين مرسى سفينة سروش؟!

يتصور بعضٌ أن سروش يعتزم من خلال هذه الأفكار إلى اجتثاب جذور الإسلام، وإضرام النار في بيدر إيمان الشباب؛ وهناك من قال بأنه هناك من يعمل على تحريكه من قبل أعداء الإسلام بلا شعور منه؛ وهناك من يراه منزلقاً في منحدر حادّ بعيداً عن الإسلام، هذا والقرآن يدعونا إلى حمل المسلم على الصحة، والعمل على إيجاد محمل لما يقوله بقدر الإمكان، قال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء:94]، خصوصاً بالنسبة إلى شخص مثل الدكتور سروش، الذي لا تخفى إنجازاته في خدمة الفكر الديني في تاريخنا المعاصر.

ويبدو لنا أن السيد سروش قد سلك هذا الطريق بنوايا خيّرة ورؤية إصلاحية؛ بوصفه متنوّراً دينياً، لغرض حل معضلة التعارض بين الإسلام التقليدي والفكر المعاصر، حتى وإن كان ذلك على حساب بعض الأذواق والمشارب التي لا يروقها مثل هذا التوجه،

فهو يفصل بين الجوانب المعنوية والغيبية والعبادية، التي تمثل جوهر الدين وذاته، وبين الجوانب الاجتماعية والسياسية، التي هي بمثابة القشور والأعراض في الدين، حتى لا يؤثر كلامه سلباً في أمور الدين العبادية والغيبية، وتبقى هذه المساحة بمنأى من الخطأ، ويكون في الوقت نفسه ناجحاً وموفقاً في حلّ التعارض القائم بين العلم والدين، والدين والحياة الاجتماعية، والدين وحقوق الإنسان.

إن اختلاف الدكتور سروش عن سائر المختصين في مجال الأمور الاجتماعية أنهم يفضلون السكوت وعدم الخوض في الموضوع، أو يسعون إلى حل المشاكل العديدة في الرؤية التقليدية للدين بالأحكام الثانوية ومصلحة النظام، ورغم اعتقادهم بأن حلال الله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، دون أن يتحدد بزمان أو مكان، إلا أنهم من الناحية العملية لم يطبّقوا من الأحكام الشرعية سوى الأحكام الثانوية والحكومية المؤقتة، التي ترتبط بزمان ومكان خاصين، وطبقوها على نطاق واسع من أمور الحياة، فيجب أن يقال لهم مثلاً: إذا كان حكم الله في القرآن أبدياً وغير مقيّد بزمان ومكان فيجب قطع يد السارق، فلماذا عطلتم هذا الحكم؟ هل حكمكم هذا عدم قطع السارق في الظروف الراهنة مؤقتٌ؟ فإذا كان كذلك فعليكم تحديد زمن انتهاء هذا الحكم. ألم يكن ما صرّح به الإمام الخميني في أواخر حياته، من أنه لا يمكن إدارة المجتمع بالاجتهاد المصطلح، إشارة إلى وجوب التفكير الجاد في هذا الشأن؟ أليس من

الأجدى أن نفكر بحل جذري بدلاً من الاستدراك على أحكام الله بتأبيد الأحكام الثانوية، لتغدو أطول عمراً من أحكامه الأبدية، وأن نقدر من سلكوا هذا الطريق الشائك بدلاً من أن نعمل على تخطئتهم وتشويه سمعتهم؟ إن الحلّ الذي يراه سروش هو القول بان هذا النوع من الأحكام المتعلقة بالأمور الاجتماعية وحقوق الإنسان ليست أحكاماً دائمة، بشرط أن لا يكون في ذلك مخالفة لله وجرأة على رسوله، إنّه يقول صراحة، ودون أن يكون في كلامه جرأة على محبوبه، أو أن يتهمه ـ كما فعل البعض ـ بالتمويه، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم رغم علمه ببطلان هذه الأمور إلا أنه تمادى في ذلك مغتنماً جهل الناس، وإنما يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بناءً على علمه قد صاغ الوحي الإلهي وشرح للناس أحكام الله الاجتماعية، وعليه يحتمل أن لا يكون ذلك الحكم أو الموضوع منطبقاً على عصرنا الحاضر.

ومع ذلك لا تخلو رؤية الدكتور سروش من الإشكال؛ فإنه يعتقد في هذه النظرية أن هناك اختلافاً بين لؤلؤ الوحي وصدفه، وذاتيّه وعرضيّه، وعليه أن يجيب عن الكثير من الأسئلة، ومنها:

السؤال الأول: ما هو المعيار الذي يساعدنا على التفكيك بين لؤلؤ الدين وصدفه؟ إذ هناك الكثير من الآراء المطروحة في هذا المجال، فقد ذكر ابن خلدون والفيض الكاشاني وإقبال اللاهوري آراء مختلفة في هذا الشأن.

والسؤال الثاني: مع وجود التداخل الوثيق والمتشعب في مسائل الوحي السياسية والاجتماعية بالأمور التي يراها السيد سروش أساسية وجوهرية في الوحي، مثل: الله، ويوم القيامة، والإيمان، والإنفاق، والجهاد، والخشوع، والزهد، والعبادة، فما هو المعيار الذي يساعدنا على التفكيك بين الأمور التي يمكن فيها الخطأ والأمور التي لا تقبل الخطأ في الوحي؟

والسؤال الثالث: إذا كان الجانب البشري والقابل للخطأ يؤثر في جزءٍ من كلام الله فما هي الضمانة في أن تقتصر هذه الأخطاء على السماوات السبع، ورجم الشياطين، وما إلى ذلك من الأمور التي ترونها من عرضيات الدين؟ ولماذا لا تنسبون خطأ التصوير إلى أجزاء الوحي الأخرى، كالذاتيات؟ فما هو الفرق بين تصوير الوحي من قبل الإنسان في الأمور العملية والاجتماعية وتصويره في أمور الوحي الجوهرية؟ فهل يخلع النبي في هذا المجال رداء بشريته ويرتديه في المجال الآخر؟

وعلى كل حال هذه أسئلة أساسية يتعين على الدكتور سروش إذا أراد إتمام نظريته وإخراجها في صيغتها النهائية أن يجيب عنها.

مركز الموعود الثقافي – الكويت

almaw3oud@Gmail.com

مكتبة الفكر الإلكترونية

www.alfeker.net